

استعادة الحرف اليدوية المندثرة بوصفها عنصر جذب سياحي مصنوعات الحجر الصابوني بأهواض أنموذجاً

د. محمد بن عبدالرحمن الفارس

قسم الجغرافيا - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تتميز السياحة بأنها ذات موارد شتى لا يكاد يحدها حد، تجعل كل مكان على سطح الأرض ذا جاذبية لفئة أو فئات من الناس، وقد رافقتها الصناعات اليدوية في كل موضع من مواضعها، فلا يكاد يوجد موضع يؤمه الناس إلا كان سوقاً رائجة لمصنوعات أهله الذين أبدعوا في صنع تذكارات سياحية يقبل عليها السياح، وتشكل جانباً من الدخل السياحي لذلك البلد، ولقد قدمت السياحة حلاً للمحافظة على كثير من الحرف التي كادت تندثر في كثير من أجزاء العالم بإيجادها سوقاً ممتازة لها، ولئن كان للسياحة آثار سلبية تتبها لها صناعات القرار والباحثون في مجالها، وسعوا للحد منها فإن من أهم فوائدها تعزيزها للحرف اليدوية التي أصبحت بحد ذاتها جاذباً سياحياً، وجزءاً من السياحة النظيفة التي تهدف إلى المحافظة على بيئة المقصد السياحي وثقافة مجتمعه المحلي.

وبالنظر إلى الوضع في المملكة العربية السعودية فإننا نلاحظ أن الحرف كانت تؤدي دوراً اقتصادياً مهماً في الماضي، أما الوقت الحاضر فإننا نشهد تدهوراً وانقراضاً لها، فبعضها اختفى تماماً، وبعضها صارت تنفذ من بعض العمالة المستوردة، واكتظت الأسواق بمنتجات العالم من التذكارات والمقتنيات الرخيصة التي لا علاقة لها بمجتمعنا، وكان السبب الرئيس في هجرها هو توفر وظائف أسهل وأكثر عائداً للسعوديين وإخفاقهم في تطويرها فنياً واقتصادياً، هذا على الرغم من وجود سوق ضخمة لهذه المنتجات في مواسم الحج والعمرة والحركات السياحية الداخلية النشطة.

أثار اهتمام الباحث منذ مدة انتشار بقايا الأواني من الأحجار الصابونية في كثير من المواقع في المملكة والدول المجاورة، وهو نوع من الأحجار المناسبة لصنع الأواني وغيرها^(١)، وقد التقط الباحث كسراً لأواني من هذا الحجر في منطقة الوصيل إلى الشمال من مدينة الدرعية قبل تسويتها وتحويلها إلى مزارع، فمن الذي صنع هذه الأواني؟ وأين صنعها؟ وما مصدر الأحجار؟ كانت هذه هي التساؤلات الأولية التي طرحها الباحث، وبالرجوع إلى المراجع الجغرافية القديمة تبين أنها صناعة محلية اندثرت، فقد كان يعدن ويصنع في عدد من المواقع التاريخية المنتشرة

(١) حجر يتركب أساساً من مادة التلك، وهو مقاوم للحرارة بدرجة عالية، وسيرد تفصيل خصائصه لاحقاً.

على أرض المملكة، وقد ينقل الحجر إلى مستوطنات تقوم بتصنيعه، وبحث سريع تم التعرف على عدد من الأماكن التي عرفت كمصادر للخام تحت اسم (معدن البُرْم) نسبة إلى أن المنتج النهائي الذي هو إناء يطهى فيه الطعام يعرف بالبُرْمَة.

إنه من المثير للدهشة أن تندثر هذه الصناعة في المملكة لدرجة أنها لم تكن موجودة حتى في الماضي القريب الذي وجدت فيه عشرات الحرف اليدوية قبل النهضة الاقتصادية الحالية للمملكة العربية السعودية، على الرغم من استخدام البرمة في المناطق الجنوبية حتى الوقت الحاضر مجلوبة من اليمن؛ حيث ما زالت صناعتها قائمة في صَعْدَة، كما أنها صناعة واسعة الانتشار في العالم المتقدم والنامي على حد سواء، وقد رأيت من واجبي أن أقوم ببحث إمكانية إعادة هذه الصناعة لما لها من آثار إيجابية في التنمية الريفية؛ بوصفها جزءاً من السياحة البديلة ذات الأثر الجيد في تنمية المناطق محدودة الدخل، خاصة وأن مناطق تعدينها وصناعتها كانت قائمة على الدرع العربي الذي يعاني ضعف الموارد وشح المياه.

١- موضوع البحث

يحاول هذا البحث رصد صناعة حرفية قديمة: متناولاً زمن قيامها وأثرها واندثارها وتقدير مدى الاستفادة منها في الوقت الحاضر لا سيما أنها كانت سبباً في قيام عدد من المستوطنات القديمة التي اعتمدت عليها محوراً لاقتصادها،

ويركز على تلمس الدور المأمول لها في تنشيط السياحة في إقليمها المحلي، وإعادة إحياء الأرياف التي تراجعت مع التحول الاقتصادي والحضري في المملكة العربية السعودية، وسيتناول البحث ماهية الحجر الصابوني واستخداماته وصناعاته وإمكانية إحيائها في مناطقها التقليدية بالمملكة، ونظراً لتعدد الصناعات والمواقع التي قامت فيها فقد قام الباحث بدراسة أنموذج واحد هو بلدة أوضاخ، وهي إحدى مراكز محافظة الدوادمي بمنطقة الرياض.

ولاختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها ما يأتي:

- أهمية هذه الصناعة على مستوى العالم بوصفها حرفة وفناً، وارتباطها بالسياحة.
- ماضيها المهم في المملكة؛ حيث قامت عليه عدد من المستوطنات في الماضي، منها قرية المعدن جنوب الطائف، والحوراء قرب أملج، وأوضاخ وغيرها.
- اختفاء هذه الصناعة تماماً في المملكة العربية السعودية.
- دورها المأمول في التنمية الريفية.
- أن الباحث أحد فناني النحت في المملكة.

٢ - الدراسات السابقة

تناول بعض الباحثين في تخصصات مختلفة الحرف اليدوية في المملكة بالدراسة ضمن أبحاثهم عن المملكة عموماً أو أحد أقاليمها، ومن ذلك: دراسة عبدالله السيف (١٤٠٢هـ)، فقد تتبع الصناعات في نجد والحجاز في

العصر الأموي، وأشار إلى ما تخصصت به بعض البلدان من الصناعات^(٢)، غير أنه لم يتطرق إلى صناعة البرم في أوضاخ أو غيرها سوى ما نقله عن الأصفهاني من أن رجلاً بمكة كان يصنع البرم. وقد درس صالح الوشمي (١٤٠٨هـ) الحياة الاقتصادية والاجتماعية باليمامة حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وتطرق في بحثه إلى الحرف بوصفها أعمالاً اقتصادية مارسها النجديون، مركزاً على إحدى عشرة حرفة أفرد لها فصلاً في بحثه، وهي صناعة الأسلحة وصياغة الحلي والنسيج والحياسة ودباغة الجلود والنجارة وحرفة الجريد والخصوص وحرفة الجمع والالتقاط وحرفة البناء وحرفة الكراء (النقل) وحرفة الطب والعرافة^(٣)، ولم يشر إلى حرف صناعة الأواني المعدنية والحجرية والفخار.

وقد تناول يوريس زارنيس (١٣٩٨هـ) مقتنيات متحف الآثار والتراث الشعبي من بقايا الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني بالدراسة المختصرة التي ركز فيها على تاريخها وبعض خصائصها والأماكن التي وجدت فيها^(٤)، وضمن مسح للمناطق الأثرية زار فريق من إدارة الآثار والمتاحف الموقع

(٢) عبدالله السيف (١٤٠٢هـ) الصناعات في نجد والحجاز في العصر الأموي. في: مجلة الدارة، السنة السابعة، العدد الثالث، ص ٢٤٤.

(٣) صالح الوشمي (١٤٠٨هـ) ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري. الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ص ٢١٧.

(٤) يوريس زارنيس (١٣٩٨هـ) تقرير عن الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني بمتحف الآثار والتراث الشعبي بالرياض. في: أطلال، حولية الآثار السعودية، العدد الثاني، ص ٧٨.

الأثري بأوضحا، وأشار في تقريره إلى صناعة الحجر الصابوني فيها مع تقييم أولي للموقع^(٥).

هذا مع بعض إشارات لأوضحا وصناعة البرم في بعض الدراسات والمعاجم الحديثة التي اعتمدت على المراجع التاريخية والجغرافية القديمة مثل معجم بلاد القصيم لمحمد العبودي. وظلت المنطقة الأثرية التي تمثل البلدة القديمة على حالها حيث لم يتم التنقيب فيها أو دراستها دراسة متكاملة، بل إنها تضررت من إنشاء الطريق الواصل إلى القرية الحديثة حيث مرّ عبرها، كما تعاني من تعديات بعض لصوص الآثار من حين لآخر على الرغم من قيام وكالة الآثار والمتاحف بتسييج جزء كبير منها.

من جهة أخرى، فمن أحدث ما تم في مجال الحرف اليدوية بالمملكة هو وضع فريق من الهيئة العليا للسياحة لتصور مقترح لتطوير الحرف والصناعات التقليدية بالمملكة^(٦)، مركزا على العقبات والحلول المقترحة.

وبهذا يرى الباحث أن الموضوع ما زال بكرة يحتاج إلى دراسات عدة تتطرق لكل حرفة على حدة، مع ربطها بمحيطها الجغرافي، ودراسة إحيائها من جديد.

(٥) يوريس زارنيس وآخرون (١٣٩٩هـ) التقرير المبدئي عن مسح المنطقتين الوسطى والجنوبية الغربية. في: أطلال، حولية الآثار السعودية، العدد الرابع، ص ٢٩.

(٦) الهيئة العليا للسياحة (١٤٢٥هـ) تصور مقترح لتطوير الحرف والصناعات التقليدية بالمملكة العربية السعودية، تقرير لم ينشر.

٣ - تساؤلات الدراسة ومنهجها

أدى التطور الحديث للمملكة العربية السعودية والخطط المتبناة للتحديث إلى هجرة معظم سكان القرى إلى المدن وترك العمل بالحرف التقليدية، مثل: الزراعة والرعي التي صار معظمها يتم عملياً بوساطة عمالة وافدة؛ وقد كان أكثر القطاعات تضرراً هو قطاع الحرف اليدوية التي كادت أن تختفي، وتوقف تطورها واندثرت بعض خبراتها التقليدية إلا من محاولات من أفراد ومؤسسات لحفظه، وفي حين كانت هذه القطاعات تعيل نسبة كبيرة من سكان المملكة في أرياف وقرى عماد حياتها الحرف التقليدية تقلص الكثير منها، والبعض أصبح يقوم بدور ترويحي اجتماعي ريفي فقط.

يثير هذا البحث تساؤلاً رئيسياً حول إمكانية إعادة بعض الحرف اليدوية القديمة وتطويرها في بعض القرى، لتقوم بالدور نفسه الذي قامت به في الماضي كمستوطنات صناعية متخصصة، لا سيما أن ذلك سيدعمه قطاع مستحدث وهو قطاع السياحة. وقد اختار الباحث صناعة الحجر الصابوني مثلاً نموذجياً لدراسة تطويرها بوصفها عنصر جذب سياحي ضمن الإطار الجغرافي ومعطياته المكانية للمساعدة في تنمية المناطق الريفية بالمملكة العربية السعودية.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية يطرح البحث الأسئلة الآتية:

١ - ما أسباب اندثار صناعة الحجر الصابوني؟ وهل ما زالت قائمة؟

٢ - هل أوجد التطور الحديث أسباباً وعوامل في صالح إعادة هذه الصناعة أو ضدها؟

٣ - ما الصيغة الممكنة للتفاعل بين صناعة الحجر الصابوني والسياحة؟

٤ - كيف يمكن استعادة دور صناعة الحجر الصابوني في حياة مجتمعها المحلي؟ وما الفوائد التي يمكن أن تعود على المنطقة بإحياء هذه الصناعة؟

اعتمدت هذه الدراسة على استقصاء إجابات أسئلة البحث تاريخياً من خلال الرجوع إلى المصادر الجغرافية العربية القديمة، والكتب الأدبية، والمصادر التاريخية الأخرى التي أشارت إلى صناعة الحجر الصابوني وأوضح على وجه الخصوص، وألقت الضوء على الحجر الصابوني؛ خصائصه وصناعاته وتعدينه في المملكة؛ لتقديم نموذج مقترح لإعادة إحياء صناعته في مناطقها القديمة عبر التركيز على دراسة نموذج واحد هو بلدة أوضاع بمنطقة الرياض، واعتمد البحث أيضاً على الدراسة الجغرافية الميدانية لمنطقة الدراسة؛ حيث زار الباحث منطقة الدراسة مرتين: الأولى زيارة استطلاعية في شهر ذي القعدة من سنة ١٤٢٧هـ، والثانية خلال شهر ربيع الثاني من سنة ١٤٢٨هـ، وقد زار خلالهما بلدة أوضاع ومعالمها الطبيعية والبشرية، والتقى رئيس مركزها وبعض سكانها، كما زار المناطق المجاورة لها من الدوادمي جنوباً وحتى رفابع الجمش غرباً، وبلدة الأثلة شمالاً إلى أقصى عبله أوضاع شرقاً، وكان الغرض هو تتبع الأماكن ذات الأهمية السياحية بها، والتعرف على ما بقي من الصناعات خلال زيارة سوقها الأسبوعي برفابع الجمش.

ثانياً: الحرف اليدوية في المملكة والاقتصاد الريفي

كانت الصناعة في الماضي تتم يدوياً بمساعدة أدوات ابتكرها الحرفيون تعتمد على القوة العضلية للإنسان، وكان الهدف هو إنتاج منتج كامل يؤدي وظيفة معينة قد تكون أساسية كالأواني وأدوات الزراعة، وقد تكون كمالية أو جمالية كالحلي. واجتهد الحرفيون لجعل منتجاتهم تلبي حاجة زبائنهم وتلقى إعجابهم، وزينوها بطابع يحمل سمات ثقافتهم المحلية، وكان الحرفي يكرر صناعة السلع التي تلقى رواجاً لدى الناس؛ مما جعلها تأخذ أشكالاً محددة لا تتغير لفترات طويلة، ويقع ضمن هذا المصطلح مجموعة كبيرة من الصناعات اليدوية القديمة بمختلف الخامات المعتمدة على مهارات يدوية يتوارثونها جيلاً بعد جيل متخذين منها مصدر الرزق الأساسي.

وبدخول عصر الثورة الصناعية فقد أصبح الإنتاج يتم بواسطة آلات قادرة على إنتاج كميات هائلة من نموذج واحد وبدقة عالية، الأمر الذي وفرها بقيمة رخيصة لانخفاض الجهد المبذول في صناعتها، وأدى ذلك إلى تراجع كبير في التصنيع اليدوي الذي لم يستطع منافسة الآلة في كفاءة الإنتاج وتكلفته، إلا أن المنتجات اليدوية اكتسبت تقديرًا خاصاً لدى الناس بوصفها جزءاً من التراث الحضاري للشعوب، وتقديراً للجهد المبذول لإنتاجها، وعلى الرغم من أن المنتجات الصناعية تكون أكثر دقة وتماثلاً غير أن أثر العمل اليدوي على القطعة المنتجة يُعدُّ أحد الدلائل التي ترفع من قيمتها. غير أن الحرف اليدوية ليست شيئاً ثابتاً؛

إذ إنها قابلة للتطور، وهو ما حدث في الدول المتقدمة حيث هناك من يصنع يدوياً برؤية حديثة، وأسهمت السياحة في ابتكار الحرفيين لتذكارات سياحية لم تكن من أصل صناعتهم، ويحرص الحرفي عادةً على استخدام مواد محلية، غير أنه قد يجد في بعض المواد المصنعة بدائل جيدة ورخيصة كأسلاك النايلون والجلود الصناعية وغيرها، واستخدمت العدد الكهربائية التي يتم حملها أو التعامل معها يدوياً لمساعدة الحرفي في بعض مراحل التصنيع، إلا أن سرعة الإنتاج بقيت أقل من إنتاج المصانع الحديثة بفارق كبير جداً.

وعلى الرغم من أن المفهوم الشائع للحرف اليدوية يميل إلى تحديدها بالمصنوعات التراثية إلا أن التعريفات الحديثة تميل إلى أنها تشمل كل ما يتم إنتاجه بمهارات يدوية وخلفية ثقافية خاصة، فهو يقبل التصميم الحديث ولا يقف عند حد المصنوعات التراثية.

ولابد لنا هنا من التمييز بين الحرفي والفنان التشكيلي، خاصة وأنهما يستخدمان تقنيات متشابهة. إن الفرق يظهر بوضوح فيما ينتجانه والغاية منه؛ فالفنان التشكيلي هو من يشكل المواد وفق رؤية تعبيرية خاصة، مع الحرص على عدم تكرار أعماله التي ينتجها، فالعمل الفني الذي ينتجه يفترض فيه أن يحمل فكراً، وأن يكون فيه جدة، وليس تكراراً لأعماله السابقة أو نسخة مقلدة لأعمال الآخرين. وقد يقوم بتصميم لحساب منتج صناعي، وهو ما يعرف بالفن التطبيقي؛ حيث يقوم الفنان بتصميم قطعة فنية ذات وظيفة كقارورة العطر

والساعة، أو جمالية كالحلي بفرض استنساخها، وبالمقابل فإن الحرفي يتخذ من حرفته مصدر عيش ويعمل على إنتاج مصنوعات يكررها بقدر ما يستطيع بعمله اليدوي وأدواته المساعدة، ومن هنا فإن الفنان التشكيلي قد يكون مقدم الأفكار أو المصمم المبدع للحرفي، وقد يجمع الحرفي بين الأمرين فيكون فناناً مبدعاً وحرفياً في الوقت ذاته، ولهذا فائدة مهمة سنتطرق لها فيما بعد عند الحديث عن التقدير الاجتماعي للحرفي والفنان التشكيلي واستغلال ذلك في استعادة الصناعة.

وعلى الرغم من أنه اشتهر عن العرب احتقارهم للحرف إلا أن التاريخ يشهد على ممارستهم لأنواع عدة منها واستخدامهم لغيرهم أحياناً، وإن كانت بعض القبائل تنأى بنفسها عنها إلا أن بعضها عرفت بالصناعة والتعدين منذ ما قبل الإسلام، وبقيت الصناعات إلى العصر الحاضر مع تراجع كبير في ممارستها في المملكة لدخول المصنوعات الحديثة المستوردة والمصنعة محلياً، ولعزوف الناس عنها إلى وظائف أكثر راحة ومردوداً وتقديرًا اجتماعياً.

لقد كانت كثير من الحرف التقليدية مرتبطة بالحياة الريفية والبدوية لحاجة هذه المجتمعات إلى كثير من الأدوات التي يصنعها الحرفي في حياتهم الاقتصادية ولاستخدامهم اليومي، وكمنتج إضافي يساعدهم في زيادة الدخل القليل الذي يحصلون عليه من الزراعة وتربية الحيوان. وقد أحدث

التقدم الاقتصادي الحديث للمملكة العربية السعودية الذي نتج بالدرجة الأولى عن اكتشاف البترول وإنتاجه بكميات ضخمة وبعائد لم تشهد الجزيرة العربية من قبل، متفوقاً على جميع القطاعات الاقتصادية التقليدية، أحدث تحولاً اجتماعياً وجغرافياً كبيراً إذ أعيد توزيع السكان، وتغيرت مهنتهم باتجاه أغلبهم إلى المدن تاركين مئات القرى والهجر بأعداد سكانية قليلة جداً، بل إن بعضها هُجر تماماً، والدراسات السكانية تشير إلى أن ٨٣٪ تقريباً من السكان يسكنون المدن مع استمرار التراجع السريع لسكان القرى^(٧). بل إن هذه النسبة تزيد في منطقة الرياض على ٩٠٪ بحيث يقل من يسكنون القرى والبادية في المنطقة عن ١٠٪ من سكانها^(٨). ولا شك أن لذلك آثاراً عدة، ليس أقلها أثرها السلبي في نمو الأرياف؛ حيث واجه السكان إغراضاً وانصرافاً من رؤوس الأموال بحساب منطق الربح والخسارة... كما أن تناقص عدد سكان القرى والهجر يؤخر دورها في خطط التنمية من حيث سلم أولويات التنمية الوطنية بالنظر إلى أن حجمها البشري يتجه نحو التناقص^(٩)، ولم تعد القطاعات الاقتصادية التقليدية قادرة على سد احتياجات سكانها تبعاً لتغير طريقة حياتهم، وزيادة تبنيتهم للقيم

(٧) محمد الربدي (١٤٢٦هـ) سكان المملكة العربية السعودية. المؤلف، الرياض، ص ٣١٨.

(٨) المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٩) محمد الوهيد (١٤٢٧هـ) الهجرة من القرية إلى المدينة دراسة تقويمية. في: مجلة الدارة، العدد ٣، ص ١٢٩.

الاستهلاكية، ومنافسة الوظائف الحكومية لهذه المهن كبديل مريح ومضمون ذي عائد جيد. أما المهن التقليدية كالزراعة والرعي فقد تحول السعوديون فيها إلى مُلاك ومشرفين نتيجة لاستقدام عمال وخبرات أجنبية تتولى التشغيل الفعلي، وقد اندثرت الحرف اليدوية التقليدية تقريباً، وحلت محلها المهن الصناعية والفنية التي تعتمد على الخبرات المتخصصة والمهارات والآلات الحديثة، وترتب على ذلك أن الأفراد والعائلات التي كانت تمتهن الحرف الشعبية السابقة انصرفوا عنها إلى أعمال ومجالات أخرى^(١٠).

لقد كانت بعض الحرف عماد اقتصاد بعض القرى والبلدان، واشتهرت بعضها بصناعات محددة، فبلدة ثرماء إحدى قرى الوشم على سبيل المثال كانت تشتهر بصناعة البرود (جمع بُرْدَة)^(١١)، وعرفت الأحساء بصناعة العباءات إلى وقت قريب، وراجت صناعات كالخرابة والحدادة والنجارة ودبغ الجلود وتجفيف الأطعمة في معظم القرى الرئيسية، إذ كانت منتجاتها مصدر دخل إضافي يضاف إلى الإنتاج الرئيسي من منتجات زراعية وحيوانية، أما في الوقت الحاضر فقد بدأت الخبرات التقليدية القديمة التي تراكمت عبر التاريخ ومورست إلى وقت قريب في المجتمعات البدوية والريفية والحضرية بالتلاشي نتيجة موت محترفيها ودخول

(١٠) محمد السيف (١٤٢٤هـ) المدخل إلى دراسة المجتمع السعودي. مكتبة الخريجي، الرياض، ص ٨٨.

(١١) عبدالله السيف (١٤٠٢هـ) الصناعات في نجد والحجاز، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٤.

الآلة والخبرات الأجنبية والمصنوعات المستوردة، وهو أمر قد يقف عقبة في وجه تطوير الحرف اليدوية ذات الشخصية المحلية.

وبالنسبة للبادية الذين توطنوا في الهجر فقد تقبل بعضهم الزراعة بدليل ظهورها في بعض قراهم، لكنهم فقدوا الخبرات التقليدية في صناعة الغزل وصناعة المنسوجات الصوفية وبيوت الشعر، ولم تعد المرأة تعمل تلك الأعمال التي مهرت فيها في حياتها البدوية، والتي زالت بالاستقرار وعمل الرجال في الأعمال الحكومية. إن زيارة للأسواق البدوية الحالية تثبت ذلك التراجع الكبير في إنتاج هذه الحرف مقابل المستورد الرخيص.

ومن جهة أخرى فقد تم تشجيع التوسع في الزراعة والرعي، وهما حرفتان تعانيان الظروف البيئية غير المساعدة، وعلى الرغم من أهمية الزراعة في بعض المناطق التي يتوفر فيها مخزون قديم من المياه الجوفية فإن كثيراً من أجزاء المملكة تعاني شحاً في المياه، إذ لا تكاد تكفي أحياناً سد حاجات سكانها من مياه الشرب، ومعظمها يقع فوق تكوينات الدرع العربي التي تمثل ما يقارب ثلث مساحة المملكة، وحتى تلك المناطق الغنية بالمياه تخشى من تراجع سريع في خزينها المائي نتيجة التوسع الزراعي، الأمر الذي يضع حدوداً لتنمية الزراعة كبديل اقتصادي، ولا أدل على ذلك من جفاف العيون القديمة مثل عيون الأفلاج والخرج والأحساء وعين ابن قنور والصوينع (أقربها لأوضاخ)، الأمر

الذي يحتم إيجاد توازن اقتصادي بين القطاعات المختلفة يراعي المحددات البيئية، والبحث في الوقت نفسه عن بدائل أخرى.

ويلحظ أن الأرياف والصحراء تجذب سكان المدن كميدان ترفيهي وسياحي واسع؛ إذ إن كثيراً من القرى تصبح أكثر حيوية ونشاطاً خلال العطلات والمواسم المعتدلة وملاذاً لطالبي الراحة والاستجمام من سكان المدن التي تعاني اكتظاظاً سكانياً، الأمر الذي يعطي أملاً في تطوير سياحي يستغل ما فيها من إمكانات، ومما يؤسف له أن هذه النظرة كانت شبه غائبة عن المخططين ومتخذي القرار خلال الطفرات العمرانية السريعة التي حدثت في العقود الأربعة الأخيرة، إذ يبدو نموها العمراني بدون سمات خاصة أو جمالية، بل طبقت الاشتراطات ذاتها التي تطبق في المناطق الحضرية مع ضعف واضح في توظيف الإمكانيات السياحية والجمالية المميزة لها، وارتجالية في تنسيق المظهر العام (Landscape)؛ الأمر الذي أضعف قيمتها السياحية والترويحية كملجأ وملاذ من بيئة المدن المكتظة، وكضواحي نموذجية كان يمكن لها أن تنافس بعض أفضل أحياء المدينة في جاذبيتها السكنية، وهو أمر معروف في الدول المتقدمة.

إن بعض هذه الإمكانيات لم يتم استغلالها أو تحسينها بصورة فاعلة، بل جرت محاولات ارتجالية لتوظيف بعضها بصورة مترددة، ومن ذلك أن كثيراً من الآثار تمت حمايتها بوضع سياج وتعيين حارس لها والاكتفاء بالدراسة الأولية لها، وتركت لعقود دون الاستفادة منها، في حين تم ترميم بعض

الآثار التاريخية دون وضع تصور كامل للاستفادة منها عدا فتحها للزوار أحياناً.

وفي مجال آخر وباجتهاد محلي من قبل البلديات تم تطوير بعض المنتزهات البرية بصورة غير متكاملة وبتصاميم ضعيفة، لم تكن لتجعلها نقطة جذب ذات بال في الجانب السياحي وهي أبعد ما تكون عن الاستدامة البيئية. من جهة أخرى لابد أن يأخذ التطوير في الحسبان عدداً من الأهداف التي تصب في المصلحة المحلية والإقليمية والوطنية، مع مراعاة أن السياح يتفاوتون في رغباتهم، وأنهم قد يحتاجون لأكثر من سبب لإقناعهم بزيارة المنطقة، الأمر الذي يؤكد على التنمية السياحية المتنوعة، ومن هنا تبرز الحاجة إلى إعادة النظر في تنمية هذه المناطق وفق خطط شاملة تأخذ في الاهتمام الإمكانات والمحددات البيئية.

إن المثال الذي يطرحه الباحث في هذا البحث هو الاعتماد على تطوير نواة سياحية تقوم على استلها م قيمة

تاريخية مهمة ووضعها ضمن منظومة سياحية لتطوير منطقة محدودة الدخل، فعلى الرغم من

المثال الذي يطرحه الباحث الاعتماد على

تطوير نواة سياحية ذات قيمة تاريخية مهمة

تراجع الحرف أمام الإنتاج الصناعي الضخم الجيد والرخيص، إلا أن الحرف اليدوية حافظت على قيمتها في بعض الأماكن العالمية بفضل السياحة التي أوجدت لها سوقاً رائجة تأتي إليها، بل أصبحت ورشها وأسواقها أماكن جذب سياحي، ورغم صعوبة تقدير حجم إنفاق السياح على الحرف، إلا أن بعض الدراسات تقدر ذلك بما يقارب ٢٠٪

من سوق السياحة في العالم^(١٢)، ومن ثم فإن السياحة عملت دور المنقذ لكثير من الحرف العالمية؛ الأمر الذي يدعونا لتوقع نجاح هذا الدور في المملكة العربية السعودية.

ثالثاً: الحجر الصابوني

سيتناول البحث بشيء من الإيجاز خصائص الحجر الصابوني ومحاجره واستخداماته وتصنيعه وتعيدينه وصناعته في المملكة.

١ - خصائصه:

يشمل عدداً من أنواع الصخور المتحولة التي تتركب أساساً من التلك (talc)، أقل المعادن صلابة، ويكون في بعض أحواله متماسكاً مع احتوائه مواد أخرى قد تغير من قوامه أو لونه، ويسمى التلك المتماسك دون شوائب ستيتايت (steatite) وقد يدخل في تركيب الحجر الصابوني (Soapstone) مواد وشوائب عدة أهمها الكلورايت (chlorite) والسربنتاين (serpentine) والكاربونات (Carbonate). ونظراً لأن المركب الأساسي لهذه الأحجار هو التلك فإن ملمسه يشبه ملمس الصابون، ولذلك سمي الحجر الصابوني^(١٣). ويتميز هذا الحجر بالتجانس وإمكانية قطعه ونحته بسهولة بأدوات يدوية، كما يتميز بمقاومته العالية للحرارة واحتفاظه بها، كما يقاوم الأحماض،

(١٢) الهيئة العليا للسياحة (١٤٢٥هـ) تصور مقترح لتطوير الحرف، مرجع سبق ذكره، ص ٤.

(١٣) لمزيد من المعلومات راجع أحمد الشنطي (١٤١٦هـ) الرواسب المعدنية في المملكة العربية السعودية. مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ص ٢٣٠.

وهو قليل الامتصاص للسوائل، الأمر الذي جعله صالحاً للطهي وحفظ الطعام، وهو حجر قابل للصقل، ويأتي بألوان جميلة، منها الرمادي المائل للخضرة وهو أكثرها انتشاراً، والأبيض والسماوي الفاتح والأسود وغيرها.

٢ - محاجره:

يتم تعدينه عادة من محاجر مكشوفة بعد إزالة الطبقة العليا ليخرج الصخر الأصلي، ويُقطع بشيء من السهولة وبالحجم المطلوب، وقد يظهر على السطح كأكمة صخرية يتم تعدينه منها مباشرة بعد إزالة الجزء العلوي غير المرغوب نتيجة تعرضه لعوامل التعرية، ويمكن قطع كتل ضخمة منه تزن أطناناً عدة تقطع بمناشير آلية ضخمة، وتحول إلى ألواح حجرية أو مكعبات حسب طلب العميل.

يوجد الحجر الصابوني في أجزاء كثيرة من العالم إلا أنه يتوفر بكميات تجارية كبيرة في الولايات المتحدة وكندا والنرويج، أما المملكة العربية السعودية فإنه يوجد في مناطق متفرقة من الدرع العربي بعضها تم استغلاله منذ القدم، إلا أنه لم يسجل وجود رواسب مهمة لتلك ناتجة عن تحول صخور الدولوميت بالمملكة حتى الآن، وهي النوعية المفضلة من تلك^(١٤).

٣ - استخداماته:

ونشير هنا إلى استخداماته كحجر، وهو ما يخص موضوع البحث، بدون ذكر استخدامات تلك المكون الرئيس له.

(١٤) المرجع السابق، ص ٢٣١.

تبعاً لخصائصه فقد تعددت استخداماته منذ القدم، فسهولة نحته أصبح مادة مفضلة لصنع الأواني الحجرية والمباخر ومصابيح الإضاءة والتماثيل والأختام، واحتفاظه بالحرارة فقد أصبح مفضلاً لصنع أواني الطبخ والأفران والمواقد. كما يستخدم لأحواض الغسيل ومناضد المطابخ وغسيل الأيدي، ويحظى بشعبية كبيرة لدى النحاتين لصنع الأعمال الفنية والتحف والتذكارات السياحية التي تعكس الإرث الثقافي والطبيعي لمناطق إنتاجه.

الاستخدام التجاري حالياً يركز على تصنيع البلاط للمطابخ والأفران والمواقد وأحواض الغسيل. في حين أنه مادة مهمة للمنتجات الحرفية والفنية، وقد يكون فتاته مصدراً لتلك بأغراضه الصناعية المتعددة.

٤ - تصنيعه:

بخلاف كثير من الصخور فإنه يمكن قطعه بالمناشير الفولاذية العادية غير المطعمة بالألماس الصناعي، كما يمكن تشكيله بالمبارد والأزاميل وغيرها من العدد اليدوية العادية، ويمكن تنعيم سطحه أو تحزيمه أو نقره؛ لإعطاء ملامس متنوعة باستخدام سكين قصيرة أو رأس إزميل مدبب. واستخدام العدد الميكانيكية العاملة بالكهرباء أو بضغط الهواء يسهل العمل بصورة كبيرة ويسرع الإنتاج، كما أنه يصلح للخرائط عند الرغبة في إنتاج تجاري بكميات كبيرة، وكل أسلوب من هذه الأساليب له سمات وخصائص تتضح في الشكل العام للمنتج وتشطيبه الخارجي. ويتميز بقابلية

جيدة للصقل؛ حيث يتم تنعيمه بورق الرمل لدرجات عدة ثم صقله ميكانيكياً أو بالشمع.

والخلاصة أنه من أسهل الصخور وأكثرها قابلية للنحت والتشكيل.

٥ - تعدينه وصناعته في المملكة:

تشير الكتب الجغرافية القديمة إلى وجوده في أماكن متفرقة من الدرع العربي، إذ عرفه العرب قبل الإسلام واستخدموه أساساً في صناعة الأواني وقامت عليه قرى تعدينية صناعية. ونظراً لأن المنتج الأساسي هو قِدر يعرف بالبرمة فقد سمي معدن البرام أو البرم جمع بُرمة. وقد كان استعمال هذه القدور منتشراً بصفة واسعة في الجزيرة العربية، حيث وجدت كسرها في معظم المواقع الأثرية. ويشير السعود إلى وجود بقايا مصنوعات من الحجر الصابوني في معظم المواقع الأثرية بالجزيرة العربية^(١٥). وهي قطع غير مصقولة أو مزخرفة في الغالب، حيث يتم تصنيعها لغرض الاستخدام اليومي في منازل مختلف طبقات المجتمع (ملحق رقم ٢)، على أن بعضها وجد مصقولاً ومزخرفاً بصورة معقدة، ومن ذلك ما وجد في بعض المواقع الأثرية بالمنطقة الشرقية.

ومن أهم المواقع التي اشتهرت بتعدينه وتصنيعه معدن البرم أو قرية المعدن حالياً إلى الجنوب من مدينة الطائف

(15) Abdullah Al-Saud (1418) Central Arabia During the Early Hellenistic Period. King Fahad Library. Riyadh. P169.

بِوادي بقران^(١٦). وورد موضع آخر يعرف بالاسم نفسه قرب تربة. ومنها الحوراء وهي أملج القديمة، وبالقرب منها موقع لتعدينه، وقد ذكر زارنيس^(١٧) أنه شاهد موقعا في حجلا بين أبها وخميس مشيط تنتشر فيه قطع الحجر الصابوني بمختلف مراحل التصنيع، ومنجماً له بوادي ماسل بالدوادمي، وفي المعدن إلى الجنوب من أم أرطى في أقصى شمال محافظة عفيف^(١٨)، وقرب الربذة جبل يقال له أسود البرم تقطع منه حجارتها، ولا يستبعد وجوده في مناطق أخرى. وقد ينقل الحجر الخام إلى مستوطنات أخرى ليتم نحته فيها، ومنها البحرين وجزيرة تاروت يجلب إليهما من عمان.

ومن أشهرها وأهمها معدن البُرْم بأضاح (أو أوضاخ كما تسمى حالياً) وهي في أقصى شمال منطقة الرياض، وتدل آثارها على قيام بلدة تعدينية كبيرة، وقد ذكرت في مواضع عدة من كتب التراث الجغرافي، مثل: بلاد العرب للأصفهاني، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري، وكثير من كتب التاريخ والأدب.

(١٦) انظر حمد الجاسر (١٣٨٨هـ) المعادن القديمة في بلاد العرب. في: مجلة العرب، القسم الثاني، دار اليمامة، الرياض، ص ١٠٠١.

(١٧) يوريس زارنيس (١٣٩٨هـ) تقرير عن الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني. مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

(١٨) سعد بن جنيديل (١٤١٧هـ)، عالية نجد، ج ٣، المؤلف، الرياض، ص ١٢١٧.

ويذكر أحمد الشنطي عددًا من المواضع التي سجل فيها وجود التلك مختلطًا بالشوائب (الحجر الصابوني) وأهمها^(١٩):

- وادي خُمال إلى الشمال الغربي من ينبع البحر.
 - وادي مريخات شمال مدينة أملج مصاحبًا لصخر السربنتين من حزام جبل الوصق في منطقة نبط.
 - بئر عمق.
 - جبل ملحيجة بحزام طلوحه.
 - منجم الآمار بمنطقة الرياض (القويعية).
 - جبل فرسان.
 - محجر التلك بوادي الأحد بمنطقة أبها - بيشة.
 - محجر السند بمنطقة الملاحة بنجران.
- وليس للحجر الصابوني فيما يعلم الباحث صناعة بالمملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر، في حين ما زال يعدن ويصنع في صعدة باليمن وتجلب البرام (جمع بُرمة) إلى أسواق المملكة، حيث ما زالت تستخدم في المناطق الجنوبية في طهي بعض الأكلات الشعبية.

(١٩) أحمد الشنطي (١٤١٦هـ) الرواسب المعدنية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣١.

رابعاً: أوضاخ أنموذجاً

عرفت هذه البلدة بأضاخ بالهمزة المضمومة في أوله، و(وضاخ) بالواو المضمومة بدلاً عن الهمزة، وقد أوردهما ياقوت في معجم البلدان قال: (أضاخ بالضم، وآخره خاء معجمة: من قرى اليمامة لبني نمير... وأضاخ: سوق وبها بناء وجماعة ناس، وهي معدن البُرْم^(٢٠)). وقال: وُضَاخٌ: بضم أوله، وآخره خاء معجمة، ويقال أضاخ، والمواضخة أن تسير مثل سير صاحبك: وهو جبل معروف^(٢١)، ذكره امرؤ القيس فقال:

فلما أن علا لنقا أضاخ وهت أعجاز ريقه فخارا^(٢٢)

وكذلك أوردها البكري بالألف مرةً وبالواو أخرى^(٢٣).

أما العامة في الوقت الحاضر فينطقونها بطريقة تصلح للالتين بين الهمزة والواو^(٢٤). وجرت كتابتها رسمياً بالألف والواو معاً، هكذا: (أوضاخ) وبهذه الطريقة كتبت في الخرائط الرسمية، وهو ما سيسير عليه هذا البحث، فيما عدا ما أنقله عن غيري حيث ألتزم طريقتهم.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٢١) لعله قصد صفاة أضاخ.

(٢٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٣٧٩.

(٢٣) البكري. معجم ما استعجم، ج ٤، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ص ١٣٧٩.

(٢٤) محمد العبودي (١٤١٠هـ) معجم بلاد القصيم، ط ٢، ج ١، المؤلف، ص ٣٥٤.

- وكان لأوضاع شهرة وأهمية في الماضي، ومن ذلك:
- أنها كانت سوقاً عامرة يقصدها المتبضعون لشراء البرام والطرف.
 - كان فيها منبر رسمي يدعى للخليفة عليه.
 - يقضى فيها في الخصومات المحلية^(٢٥).
 - يمر بها طريق مهم من الشرق متجهاً إلى ضرية حاضرة الحمى.
 - تعرفُ بها الأماكن المشهورة كجَبَلَة.
- وأوضاع واحدة من مراكز تصنيع الحجر الصابوني كما سلف، وقد وقع عليها اختيار الباحث للدراسة للأسباب الآتية:
- ١ - أنها تمثل مثلاً نموذجياً لمستوطنة صناعية قديمة في بيئة قليلة الموارد الاقتصادية.
 - ٢ - أهميتها الأثرية.
 - ٣ - الأهمية السياحية لمحيطها من الناحيتين التاريخية والطبيعية؛ حيث يوجد بالقرب منها عدد من الأماكن المتميزة في هذين الجانبين.
 - ٤ - انتمائها لمنطقة الرياض حيث تتركز اهتمامات الباحث حالياً.
 - ٥ - قربها من مدينة الرياض، حيث يقيم الباحث، نسبة لمواقع تعدين الحجر الصابوني الأخرى.

(٢٥) حمد الجاسر (١٣٨٨هـ) أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع. دار اليمامة، الرياض، ص ٢٤٩.

١ - جغرافية أوضاع

تقع البلدة على الدرع العربي قريباً من حافته الشرقية عند التقاء دائرة العرض ٢٥،١٥ شمالاً بخط الطول ٥٥، ٤٣ (٢٦)، في أقصى شمال إمارة منطقة الرياض عند حدودها مع إمارة منطقة القصيم. وهي مركز إداري يتبعه ١٢ هجرة ومركز، وتمتد أراضيه لتشمل شريطاً يقع فوق الرف الرسوبي الغني بالمياه في منطقة السر، أما البلدة الحالية فتقع على الدرع العربي بجوار شعب يعرف باسمها، ويرفد وادي الهيشة الذي يرفد بدوره وادي الرشا، ولا يتوفر لها سوى ما تخرزنه الرواسب الرباعية في الشعاب والأودية.

وترتفع أرضها بما يزيد على ٨٠٠ متر عن سطح البحر، وتتسم بالاستواء إجمالاً، وتكسوها مفتتات صخور الجرانيت والرمال وبعض الطمي مع وجود بعض التلال والقباب الجرانيتية والأعراف الصخرية التي لا ترتفع كثيراً عن مستوى سطح الأرض، وأبرزها جبال واردات إلى الجنوب الغربي وصفاة أوضاع. وإلى الشرق تمتد عِبلة أوضاع، وهي أرض شديدة الاستواء غطتها مفتتات الجرانيت الوردي والصخور النارية والمتحولة الأخرى. وتنصرف مياهها عبر شعاب نحو وادي الرشا المعروف قديماً بوادي التسرير الذي يواصل الجريان نحو الشمال الشرقي حيث يقف عند أقدام رمال الشقيقة.

(٢٦) أسعد عبده (١٤٠٤هـ) معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على

خرائط المملكة العربية السعودية، مقياس رسم ١: ٥٠٠٠٠٠، مكتبة المدني، جدة.

وتقل الأشجار الطبيعية بصورة لافتة مقتصرة على بعض الأثل والسممر القليل في بطون الأودية حيث تتناثر مزارع صغيرة، ويظهر الرمث والشجيرات الصغيرة بكثرة في الأودية والشعاب، وتكتسي الأرض حلة خضراء من النباتات الحولية بأزهارها الصحراوية الجميلة بعد مواسم الأمطار، خاصة عبله أوضاخ التي تتحول من أرض عارية إلى مرج أخضر لتصبح أحد أهم متنزهات الربيع في المنطقة.

أما الحيوانات الفطرية فإن ما يمكن مشاهدته عادة يقتصر على الطيور الصغيرة والسحالي التي يتزعمها الضب الذي يكثر في عبله أوضاخ.

ويبلغ عدد سكان أوضاخ حالياً (١٤٢٨هـ) حسب سجلات المركز الصحي بها ١٦٠٠ نسمة، ويبدو أن هناك هجرة للسكان إلى مدينة الرياض وإلى القصيم^(٢٧).

وأغلب مساكن البلدة بنيت بالمواد الحديثة مع وجود نواة طينية إضافة إلى منازل متفرقة في المزارع. وهناك حركة لبناء مساكن حديثة لا تختلف عن مساكن المدن، إذ تم تنفيذ مخطط حديث وزعت أراضيه على السكان. وفيها حالياً بعض الخدمات تتمثل في شبكة وخزان لمياه الشرب والكهرباء والهاتف الثابت والجوال ومكتب للبريد ومدرسة ابتدائية للبنين ومثلها للبنات، ومركز إداري يتبعه (١٢) هجرة وثلاثة مراكز^(٢٨).

(٢٧) من مقابلة أجراها الباحث مع الشيخ فيحان بن مدوخ البراق شيخ البراق من عتيبة ورئيس مركز أوضاخ، في ٢٩/٤/١٤٢٨هـ.

(٢٨) المرجع السابق.

وقد نشأت قرب الوادي حلّة صغيرة تسمى أضيّخ أو وضخى. ويبدو أن هذه المياه كانت شديدة الأهمية كموارد مياه للبادية الذين يرعون ماشيتهم في الأراضي المجاورة. وقد ذكر محمد العبودي أن بعض أهالي المنطقة ذكروا له خلال زيارته لها أنهم وجدوا ما يقارب ثلاثمئة بئر قديمة، وما زالوا يجدون غيرها^(٢٩).

وإلى الشمال من الشعب بمسافة تزيد على كيلومترين نجد آثار البلد الأصلية التي تسمى أحياناً المنزلة، ويظهر من الملاحظة الأولية لبقايا المستوطنة القديمة أننا أمام بلدة كبيرة نسبياً تكتظ بالمنازل والورش، ويظهر مسجدها الجامع الذي كان منبراً رسمياً خلال العهد الأموي، وتتناثر آثار الصناعة فوق أجزاء المستوطنة، وتظهر منطقة مملوءة بنفاياتها، كما تظهر آثار التعدين على شكل ركام من الأحجار الجرانيتية والمتحولة وشظايا الحجر الصابوني، ويبدو أن موضع البلدة تحدد بمكان وجود المعدن بعيداً عن شعب أوضاع، وهناك شعب صغير يرفد شعب أوضاع المستوطنة من جهة الغرب، ويتوقع الباحث وجود آبار مطمورة به، وليس لنا أن نقول الكثير في الوقت الحالي؛ إذ إن التتقيب عن آثار المستوطنة سيفصح عن معلومات كثيرة حول صناعة أوضاع وحياة سكانها.

ويبدو أن أوضاع مرت بثلاث مراحل عمرانية، أولاهها عندما نشأت كقرية تعدينية، وربما كان ذلك قبل الإسلام

(٢٩) محمد العبودي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٩.

واستمرت بعده. وبالنظر إلى المنطقة الأثرية نجد حفراً
تعدينية حولها بقايا أساسات لورش ومساكن مبنية من
الحجر، وقد استمرت في العهد الإسلامي، فقد نسب إليها
أحد رواة الحديث^(٣٠)، ونقل البكري أيضاً أن الأصمعي قال:
(وجد بدمشق حجر مكتوب فيه هذا من ضلع أضاخ)^(٣١)،
وأشير إليها في عدد من الحوادث التاريخية في العهد
الأموي، وفي المرحلة التالية توقفت لسبب ما عن ممارسة
دورها الصناعي، وهجرت المستوطنة التي قامت حول مواضع
الخام، وقد استمرت كمورد ماء للرعاة وقرية صغيرة إلى
وقتنا الحاضر تاركة الموضع القديم إلى موضع بالقرب من
الشعب المسمى شعيب أوضاخ.

وكان التحول الثالث عندما سكنها أناس من قبيلة
مطير^(٣٢)، ثم الثبته من عتيبة عندما حدد الملك عبدالعزيز
الهجر والموارد في سعيه لتوطين البادية، وما زالوا بها حتى
الآن يجاورهم جماعة من باهلة وقبيلة مطير في بلدة الأثلة.
وقد جدد بناؤها في موضع أقرب للوادي في العصر الحديث،
إذا استخدمت مواد البناء الحديثة، وأدخلت إليها خدمات
الكهرباء ومياه الشرب والهاتف، وتم تخطيط أرض مجاورة
للبلدة، وزعت أراضيها على السكان لإقامة مساكن حديثة.

(٣٠) ياقوت الحموي، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤.

(٣١) البكري، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ١٦٤.

(٣٢) موزي بنت منصور (١٤١٩هـ) الهجر ونتائجها في عصر الملك

عبد العزيز. جامعة أم القرى، جدة، ص ١٢٨.

وإن الآثار العمرانية الطينية المهجورة والبلدة الحديثة تقع على الوادي المجاور على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً من أوضاع القديمة، وهي مسافة ليست بالقصيرة، فلا يغلب على الظن أن المنطقة السكنية في مكانها الحالي كانت مساكن من يعملون في ذلك الوقت بالتعدين، بل يميل الباحث إلى أن المستوطنة الحالية نشأت مع تحول أوضاع من مدينة تعدينية صناعية إلى مورد مياه وهجرة؛ لذا كان الموقع الأنسب قرب الوادي، في حين كانت تجاور المعدن في الماضي عندما كان الخام هو سبب حياتها.

٢ - الوضع الاقتصادي الحالي لأوضاع

لقد عاشت أوضاع لفترة من الزمن على معدنها، وأنتجت بصورة أساسية قدور الطبخ الحجرية المسماة بالبرمة، لذا عرف المعدن بمعدن البُرْم أو البرام، كما نحتوا قناديل الإضاءة وأواني أخرى عشر على بعض نماذجها في المنطقة الأثرية، غير أن هذه الصناعة توقفت منذ وقت مبكر. كما كان سكان هذه المناطق مهرة في دباغة الجلود وغزل الصوف وإنتاج بعض المصنوعات الغذائية كالسمن البري والأقط، إلا أن هذه الحرف قلت كثيراً عما كانت عليه في الماضي القريب عندما كان البادية يسوقونها كمنتج رئيس في الأسواق الأسبوعية جنباً إلى جنب مع الأغنام والإبل^(٣٣).

(٣٣) زار الباحث في ١٤٢٨ هـ / ٥ / ١ سوق الخميس برفايع الجمش، وهو أكبر الأسواق الأسبوعية في منطقة الدوادمي، ولاحظ أنه أصبح سوقاً يشتري منه أبناء البادية مصنوعات ومنتجات مستوردة يغلب عليها البضائع الرخيصة، وأن ما يسوقونه من منتجاتهم مقدار هزيل مقارنة بما كانوا يسوقونه فيها سابقاً.

وعرفت أوضاع في العصر الحديث بأنها هجرة لجماعة من قبيلة مطير ثم عتيبة بدءاً من عهد الملك عبدالعزيز، ويرجح أنه لا علاقة لهم بماضي أوضاع الصناعي عندما تداولتها قبائل عدة، مثل نمير وتميم وغني، ثم ظلت منذ القرن السابع الهجري تقريباً مورد ماء للبادية إلى أن شرع الملك عبدالعزيز بتوطينهم لتتحول الموارد إلى قرى صغيرة تجمع بين بعض خصائص المجتمعين البدوي والريفي. الكتلة السكنية صغيرة ومعظم منازلها من دور واحد أنشئت بمواد حديثة وبدون تكلف في البناء، وهناك مزارع قليلة في مجرى الوادي الرئيس بها الذي ليس سوى رافد صغير لوادي الرشا الذي يجري إلى الجنوب الشرقي منها متجها لرمال الشقيقة في الشمال الشرقي، وعلى الرغم من كفاية المياه لقيام مزارع تقليدية صغيرة، إلا أن المهتمين بالزراعة من السكان فضلوا حيازة مزارع في أماكن على أطراف الرف الرسوبي إلى الشرق من أوضاع، حيث تتوفر كمية كبيرة من المياه تكفي للإنتاج التجاري.

وقد وقفت البلدة عند حد معين لم تتجاوزه من قلة السكان وضعف الموارد الذي أصاب حتى الحرفة التقليدية الأساسية، وهي الرعي الذي فقد مرونة الحركة في أرض القبيلة قديماً بتزايد الملكيات الفردية، وهجرة السكان إلى المدن، ورغبة من بقي منهم عنها إلى وظائف حكومية، وأصبحت تمارس من قبل أقلية بعد أن كانت الحرفة الرئيسة، ورغب بعض الأفراد بامتلاك الماشية لمجرد الترفيه، ولم يظهر أي قطاع اقتصادي جديد يعول عليه كمصدر

اقتصادي ذاتي يعتمد على مصادر محلية، أما الخدمات التجارية التي أنشئت داخل البلدة فهي متواضعة لقلة السكان وعدم وجود عملاء من خارجها، وهو الأمر الذي أدى إلى إغلاق محطتين صغيرتين للوقود أنشئت في البلدة، في حين كان هناك نجاح نسبي لبعض هذه المشاريع على الطرق الرئيسية المجاورة، مثل طريق الرس - نفي الذي يعبره قاصدو المشاعر المقدسة وغيرهم.

إن هذا الوضع مثال لكثير من القرى والبلدان الصغيرة في المملكة، حيث أصبح السكان القليلون الذين تمسكوا بالبقاء فيها يعتمدون على الوظائف الحكومية القليلة وبعض الأعمال التجارية اليسيرة مع بعض الزراعة التي تتفاوت قوتها من مكان لآخر تبعاً لوفرة المياه التي تشح في مناطق الدرع العربي. إن المقارنة بين الوضع الاقتصادي الحالي والسالف لأوضاع يدل على أنها كانت أفضل حالاً وأكثر أهمية في ماضيها الغابر، وأن ذلك مرده لتصنيعها للحجر الصابوني ولمركزها التجاري.

هذا الوضع يجعل الخيار الاقتصادي لتنمية هذه القرى يتطلب قطاعاً اقتصادياً جديداً أو متجدداً يتم تطويره بعناية، وليس بمستغرب أن يعود إلى أوضاع دورها القديم كمستوطنة صناعية بشيء من الحكمة والتدبير، بل يزيد عليه لو تم وضع ذلك ضمن عنقود من أماكن الجذب السياحي المتقاربة؛ لتضاف السياحة كقطاع اقتصادي جديد.

٣ - بداية صناعة الحجر الصابوني بأوضاخ واندثارها

هنالك بعض الشواهد التي تدل على أن الحجر الصابوني معروف في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ حيث عرفت صناعته في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية، وقد أثبت أحد الاكتشافات بجنوب غرب الربع الخالي أنه صنعت أوان تعود إلى حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ووجدت أوان وأدوات مصنوعة من الحجر الصابوني بأخدود نجران والمائيات وسدرية وسمرا والفاو^(٣٤)، وقد وجد في أوضاخ بعض العملات اليونانية القديمة التي ترجع إلى ما قبل الميلاد^(٣٥).

وورد اسم أضاخ (أوضاخ حالياً) في شواهد وقصص تاريخية كثيرة (أوردها ياقوت ١٨ مرة، والبكري ١٣ مرة)، وقد بلغت حداً من الشهرة لدرجة أنه يتم تعريف بعض الأماكن المهمة في تاريخ العرب بنسبتها إليها، ومن ذلك رسم البكري لجبله بأنها: جبل ضخمة على مقربة من أضاخ^(٣٦)، كما أورد قصة تدل على معرفتهم بخصائص الحجر، قال: (قال أبو عبيدة: أضاخ من الشربة من ديار بني محارب بن

(٣٤) يوريس زارنيس (١٣٩٨هـ) تقرير عن الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني. مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

(٣٥) شاهد الباحث إحداها ضمن مقتنيات أحد أبناء أوضاخ، وهي مشابهة لما وجده عبدالله السعود قرب عين الراس بالأفلاج. انظر عبدالله السعود (١٤١٨هـ) مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٨.

(٣٦) أبو عبيد البكري، معجم ما استعجم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٥. وأوردها الأصفهاني في كتاب الأغاني، ج ١١، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

خصفة، قال: وعند أضاخ وجدت نعلا شرحبيل بن الأسود الذي قتله الحارث بن ظالم، فأحمى لهم الأسود الصفا الذي عند أضاخ، وقال: إني أحذيكم نعالا، فأمشاهم عليها، فتساقطت أقدامهم^(٣٧). وهو دليل جيد على معرفتهم بشدة اكتساب الحجر للحرارة.

وقد أورد أبو عبيدة في النقائض قصة تدل على أن أوضاخ كانت سوقا يشتري منها المسافرون البرام والطرف (الكماليات). ذلك أن بني الفقيم مروا بأضاخ، فاشتروا براما وطرفا، فعدّلوها فقدموا بها أهلهم، فسخر منهم الفرزدق بشعر، وكان ذلك في زمن ولاية معاوية بن أبي سفيان^(٣٨).

ويبدو أن المكان تداولته قبائل عدة من العرب عبر التاريخ، وارتبطت به بعض الوقائع التاريخية، وكان في العصر الإسلامي لبني نمير وغني، وهناك شواهد على أنها كانت قرية عامرة في العصر الإسلامي ينسب إليها بعض رواة الحديث، ومنهم محمد بن زكريا اليمامي الأضاخي^(٣٩)، وفيها منبر.

قال ياقوت: (أُضَاخُ بالضم، وآخره خاء معجمة: من قرى اليمامة لبني نمير، وذكره ابن الفقيه في أعمال المدينة، وقال الأصمعي: ومن مياههم الرُّسَيْس ثم الأَرطَة، وبينها وبين

(٣٧) المرجع السابق، ص ١٦٤. وأوردها الأصفهاني في كتاب الأغاني، ج ١١، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١١٦.

(٣٨) أبو عبيدة (١٣٥٣هـ) النقائض بين جرير والفرزدق، ج ١، مطبعة الصاوي، القاهرة، ص ٢٠١.

(٣٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٣.

أُضَاخ لَيْلَة، وَأُضَاخ سَوْق وبها بناء وجماعة ناس، وهي معدن البُرْم (٤٠).

لا ندري على وجه الجزم سبباً لاندثار أوضاخ؛ المدينة الصناعية، وتراجعها لتكون مورد ماء للرعاة وقرية صغيرة تميل إلى البداوة، ولا تاريخ لذلك على وجه التحديد، إلا أن قصة هجاء الفرزدق لبني الفقيم التي وردت سابقاً تدل على أنها كانت مزدهرة خلال عهد معاوية بن أبي سفيان. ويشير الاستطلاع الأولي الذي قام به فريق من إدارة الآثار والمتاحف (الوكالة حالياً) إلى وجود بقايا فخار يشتمل على نماذج مطابقة تماماً لأواني العصر العباسي ذات الصقل الأزرق والزخرفة البارزة (٤١)، الأمر الذي يؤكد أنها كانت قائمة خلال ذلك العصر.

وأورد محمد العبودي نصين رجَّح بهما اندثار أوضاخ قبل القرن الثامن الهجري؛ لأن العبارات التي وردت فيهما تدل على ذلك، ولا تقال عادة إلا في المواضع التي هي موارد للبادية أو ليس فيها عمران حضاري مزدهر، وإن لم يكن ذلك نصاً صريحاً في وقت اندثارها: (قال ابن بسّام في حوادث سنة ٨٦٠ (ستين وثمانئة): وفي هذه السنة تناوخوا عنزة والظفير على (وضاخ)، وأقاموا في مناخهم ذلك تسعة أيام.....) (٤٢).

(٤٠) المرجع السابق، ص ٩٩٣.

(٤١) يوريس زارنيس وآخرون (١٣٩٩هـ) التقرير المبدئي عن مسح المنطقتين الوسطى، مرجع سبق ذكره، العدد الرابع، ص ٢٩.

(٤٢) محمد العبودي (١٤١٠هـ) معجم بلاد القصيم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٤.

واستشهد أيضا بما ذكره ابن فضل الله من أن أضاخاً من منازل بني خالد في زمنه الثامن الهجري^(٤٣).

إلا أن الباحث يرجح أن اندثارها سبق ذلك التاريخ بزمان طويل، وأن ذلك له علاقة باختلال الأمن الناتج عن ضعف السلطة العباسية في الجزيرة العربية، ولا أدل على ذلك من ظهور الأخيضريين في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً، وسيطرتهم على أجزاء من نجد وإساءتهم لأهلها، ومن شواهد ذلك ما نقله ياقوت عن تاريخ ابن سيرين في أحداث سنة ٣١٠ هجرية قال: (انتقل أهل قرآن (القرينة حالياً بلدة قرب حريملاء) من اليمامة إلى البصرة لحيف لحقهم من ابن الأخيضر في مقاسمتهم وجذب أرضهم)^(٤٤)، ثم تلاهم القرامطة الذين كانوا أسوأ من سابقهم، وأكثر تخريباً إلى درجة قطع طريق الحاج، وتخریب الربدة، وقتل الحجاج في مكة، وهجرة السكان خوفاً من وحشيتهم، ولعل القرى الصناعية أكثر المراكز الحضرية تضرراً، وقد يكون اندثارها مرتبطاً بتعطّل طرق الحج العراقي البصري والكوفي المعروف بدرب زبيدة لفترة طويلة، إذ عُرف القرامطة بقطع طريق الحاج، وقد تقلّصت حركة الحج فيما بعد ذلك بسبب سيطرة التتار، وللخوف من قطاع الطرق^(٤٥)، وقد كانت هذه الطرق محاور اقتصادية جيدة ازدهرت على طولها مدن وقرى

(٤٣) المرجع السابق، ص ٣٦٥.

(٤٤) ياقوت الحموي، مرجع سبق ذكره، ج ٤ ص ٢١٩.

(٤٥) عبدالرحمن السنيدي (١٤٢٧هـ) أمن حركة الحج الإسلامي إلى مكة، في: مجلة الدّارة، العدد الثالث، السنة الثانية والثلاثون.

ومناطق تعدين، وعبرها الحجاج والمعتمرون والمسافرون لأغراض شتى وكانت محطاتها سوقا جيدة للتبادل التجاري بين الحجاج والسكان المحليين، وقد ذكر الرحالة ابن جبير على سبيل المثال المتاجرة بين الحجاج والسكان في عدد من المحطات أثناء عبوره درب زبيدة من المدينة المنورة. ولعل محطات طريق حاج البصرة القريبة من أوضاع كانت سوقاً مهمة لمنتجاتها الفريدة من مصنوعات الحجر الصابوني، وأقربها لهم إمرة التي تبعد ٥٠ كيلومترا تقريبا عن أوضاع، أو طخفة وضريّة اللتان تبعدان ٩٠ و ١١٠ كيلومترا تقريبا على الترتيب. وقد كانت الأخيرة حاضرة حمى ضريّة وإحدى أهم محطات الطريق، وتركزت بها التجارة يقول الأصفهاني: (وضريّة سُرّة الحمى، وهي قرية عظيمة غناء يطؤها الطريق، فيها بنو عامر والتجار، وعامتها لآل جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس) (٤٦).

لقد بدأ تخريب الطريق عمداً من قبل القرامطة في القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع حيث قاموا بتدمير الربذة، ونتج عن ذلك توقف الحجاج عن استخدامه إلا في حالات توفر الأمن والحماية، وبعد سقوط بغداد (٦٥٦هـ) تعطل الطريق، واندثرت معظم محطاته، وأصبحت مجرد أطلال (٤٧).

(٤٦) الأصفهاني (١٣٨٨هـ) بلاد العرب. تحقيق حمد الجاسر وصالح

العلي، دار اليمامة، الرياض، ص ٣٩١.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٢٦.

وفي حين أن الباحث وجد نصوصاً كثيرة تدل على أهمية أوضاع في الماضي البعيد الذي يعود إلى العصر الأموي والعباسي إلا أنها لا تذكر في التاريخ الحديث إلا لماماً، وهو ذكر يتحدث عن مناوشة أو وقعة أو ما شابه ذلك، وباستعراض تاريخ ابن بشر^(٤٨) وتكملته تاريخ ابن عيسى المعنون بكتاب عقد الدرر^(٤٩)، لم يجد المؤلف ذكراً لأوضاع فيهما على الإطلاق، على الرغم من ورود مواضع مجاورة لها مثل نفي والأثلة وعين ابن قنور ورمال الشقيقة، وهذا يدل على تراجع كبير للبلدة وتحولها لمورد ماء لا أكثر.

وربما استمرت الصناعة على نطاق ضيق إلى وقت متأخر من بعض السكان المحليين، فقد أشار ابن بليهد في كتابه صحيح الأخبار الذي طبع في أواخر عهد الملك عبدالعزيز إلى وجود من يصنعها في أوضاع حتى وقته، قال:

(وأضاح على هذا الاسم إلى يومنا هذا، وبه تصنع البرم إلى هذا العهد، وهو واقع بين نفي والشقيقة)^(٥٠).

ولم أجد ما يؤكد ذلك، غير أن سعد بن جنيدل - رحمه الله - زار الأثلة البلدة المجاورة لها، وحدثه والد أميرها وكان

(٤٨) عثمان بن بشر (١٣٩١هـ) عنوان المجد في تاريخ نجد، وزارة المعارف، الرياض.

(٤٩) إبراهيم بن عيسى (١٣٩١هـ) كتاب عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر، وزارة المعارف، الرياض.

(٥٠) محمد بن بليهد (١٣٧٠هـ) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الأخبار، مطبعة السنة المحمدية، (بدون مكان نشر) ج ١، ص ١٧٩.

شيخاً طاعناً في السن أنه أدرك (مواعين الطين) التي كانت
تصنع في البلدة، وذكرها أحد الشعراء مادحاً أهالي الأتلة بقوله:
أهل القصور اللي مواعينهم طين

عسى الحيا يذكر على دارهم طاح

قال: (تأخذ النساء طيناً من أرض البلد ثم تضعه (كذا)
في حفر، ويسقى بالماء ويخض بعصى حتى يذوب ويكون
لزجاً، ثم يستخرج ما فيه من تربة خشنة، ثم يخض ويترك
حتى ينعقد كالعجينة اللينة، ثم يؤتى بحجارة هشة (كثان
أخضر)^(٥١) من مكان في وضخى؛ وهي في أعلى وادي
أوضاخ، ويدق وينخل، ويؤخذ الناعم منه ويضاف إلى عجينة
الطين كثرها منه ويخلط بعضهما ببعض، ويكون من
مجموعهما عجينة ناعمة، ثم تبنى المواعين بأحجام وأشكال
مختلفة حسب الحاجة، فإذا جفت وضع الأصغر في الأكبر
لكل شكل منها، ثم كفيت وبعضها

**جرب الباحث هذه الطريقة ووجدها
صالحة لإنتاج أواني فخارية**
في بطن بعض ثم شبت عليها
النار حتى تحمى، ثم تترك لتبرد

فتصبح قوية صالحة للاستعمال)^(٥٢)، وقد جرب الباحث هذه
الطريقة، ووجدها صالحة لإنتاج أوان فخارية، والابتكار هنا
هو إدخال الأهالي لمسحوق الحجر الصابوني كمادة مقوية
للطينة وبنسبة النصف؛ الأمر الذي يزيد أيضاً من مقاومة

(٥١) الحجر الصابوني.

(٥٢) سعد بن جنيد (١٤١٧هـ) عالية نجد، مرجع سبق ذكره، القسم

الأول، ص ٩٦.

الفخار للحرارة، في حين أنه جرت العادة على إضافة كسر الأصدا ف أو هشيم الأواني الفخارية المكسورة أو بعض أنواع القش أو المواد الأخرى بنسبة ١٠٪ فقط في الفخار المتعارف عليه، وربما ورث أهالي الأتلة هذه الطريقة عن أجدادهم الذين سكنوا هذه المنطقة منذ القدم حيث عرفت باهلة بصناعات عدة، أهمها تعدين الذهب والفضة، وقد ذكر محمد العبودي أن البرم قد تصنع من الطين بعد طبخها بالنار^(٥٣). ولعل الأوضاخين صنعوا الاثنين، ويحتمل أن ما قصده ابن بليهد هو قدور الفخار، ولا يستبعد أن صناعة البرم من الحجارة استمرت على نطاق ضيق للاكتفاء الذاتي مثل الفخار في عهد الملك عبدالعزيز الذي عاش فيه ابن بليهد ومحمد بن عويويد الذي روى عنه سعد بن جنيدل رحمهم الله أجمعين، غير أن الباحث لم يجد ما يؤيد ذلك.

وقد يكون اندثارها مرتبطاً أيضاً بتحول اجتماعي عند سكان أوضاخ كنتيجة لتعاقب القبائل المختلفة عليها، فبعد ترك سكانها الذين قبلوا الصناعة حرفة لهم أعقبهم قوم يأنفونها كعادة معظم العرب، وتحولت إلى مورد ماء وقرية صغيرة إلى وقتنا الحاضر، فقد كانت الصناعة محتقرة عند العرب إجمالاً، عدا طوائف منهم كانت تمتهن صناعة التعدين في معادن كثيرة في جزيرة العرب، أكثرها شهرة معادن الذهب والفضة، وقد يستخدمون بعض الموالى والعبيد في تلك الأعمال، يقول حمد الجاسر:

(٥٣) محمد العبودي، مرجع سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٨.

(ولئن كان العرب في عصورهم الأولى ينظرون إلى كل الصناعات نظرة ازدراء واحتقار لرسوخهم في البداوة، ولهذا أصبحوا أبعد الناس عن إتقانها، فإن هذا لا ينطبق عليهم جميعاً، فهناك أمم منهم تحضرت وأخذت بأساليب الحضارة التي لا تقوم الحياة بدونها، غير أن النظرة الشاملة بالنسبة لكل العرب قبل الإسلام كانت تتفق مع ما وصموا به من ترفعهم عن الصناعات؛ إذ طبيعة حياتهم التي تقوم على أساس التنقل، تلجؤهم (كذا) إلى ذلك، فهم يرون أن كل صناعة تربطهم بالإقامة الدائمة ما هي إلا وسيلة من وسائل الذل والضعف... وبعض القبائل خرجت عن المألوف، ومارست بعض الصناعات...) (٥٤).

وقد روى الأصفهاني في الأغاني قصة تشير إلى التقليل من شأن سكان أضاخ في وقته، قال:

(وقف على بشار (ابن برد) بعض المُجَّان، وهو ينشد شعراً، فقال له: استر شعرك كما تستر عورتك، فصفق بشار بيديه، وغضب، وقال: ويلك من أنت؟ قال: أنا أعزك الله رجل من باهلة (وكانت تغير بأن بعضهم يمتن التعدين ومنازلهم كانت فيما يعرف الآن بالقويعية وأجزاء من الدوادمي)، وأخوالي سلول، وأصهاري عُكَل، واسمي كلب، ومولدي بأضاخ، ومنزلي بنهر بلال. فضحك بشار، وقال: اذهب ويلك، فأنت عتيق لؤمك، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد) (٥٥).

(٥٤) حمد الجاسر (١٣٨٨هـ) المعادن القديمة في بلاد العرب، مرجع

سبق ذكره، ص ٩٩٩.

(٥٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٣.

ومع ذلك فإن نساء البادية والحضر عرفوا بصناعة بعض المصنوعات، مثل غزل الصوف والنسيج وصناعة الأواني وغيرها.

وبالنظر إلى موقع التعدين بأوضاخ نلحظ حفراً تعدينية سطحية لا تضرب بعمق كبير في الأرض، وهي محاطة بركام من الأتربة والأحجار غير المرغوبة، ولا يبدو أنها نتاج حقبة طويلة قياساً لحجم هذه النفائات، ومن شبه المؤكد أن هذه الصناعة لم تمتد لعصر متأخر كصناعة تجارية خاصة مع التغيرات السكانية فضلاً عن كره سكان البادية لمثل هذه الأعمال.

وهناك سبب محتمل آخر هو ضعف إنتاج الخام لاستهلاكه، وهذا يحتاج إلى عمليات تنقيب لإثباته أو نفيه، إلا أن الباحث يرى أن الاحتمال الأقوى هو وجود مخزون من الحجر الصابوني؛ لأن أعمال الحفر التي قام بها الأوضاخيون كانت سطحية أو قريبة من السطح حسبما ظهر للباحث خلال زيارته لبقايا البلدة، وقد وجد كسراً كبيرة من الحجر فوق الركام؛ مما يدل على أن آخر من استغله كان يجد بغيته، وبمنظرة متأنية لآثارها العمرانية يبدو أنها ازدهرت في فترة سادها الاستقرار والأمن بدليل عدم وجود أثر سور قوي للحماية، ويرجح أن ذلك كان في عهد صدر الإسلام وحتى بداية ضعف سيطرة الدولة العباسية على وسط الجزيرة العربية، وهو ما يتوافق أيضاً مع توقف درب زبيدة، ويدعم هذا الرأي ويقويه أن مدناً أكبر وأكثر أهمية قد اندثرت بسبب توقف الطرق، ومنها الفاو والربذة.

أما في الوقت الحاضر فإن السكان المحليين لا يمارسون هذه الصناعة، بل إنهم يجهلون خصائص الحجر، وقد سأل الباحث من قابله من أهالي البلدة إن كانوا يستعملون بعض الأواني المصنوعة منه فأجابوا بالنفي، وقد أبدوا دهشة عندما ذكر لهم بعض خصائصه، وحسبما ذكر رئيس مركز أوضاع^(٥٦) فإنه لا يوجد متحف خاص أو شخصية مهتمة بالآثار أو فنان تشكيلي أو نحّات في البلدة.

٤ - صناعات الأوصاخيين

حتى وقت كتابة هذا البحث لم تجر عمليات تنقيب في المنطقة الأثرية، بل تم استكشافها سطحياً من قبل عدد من المتخصصين بتكليف من إدارة الآثار والمتاحف (وكالة الآثار حالياً) التي قامت أيضاً بتسييج معظمها، كما زارها عدد من الباحثين، مثل: الشيخ محمد بن ناصر العبودي وصالح الوشمي وتركي القهيدان وكاتب هذا البحث وغيرهم، ولقد دلت المعثورات السطحية خاصة ما وجده فريق إدارة الآثار بقيادة زارنيس وما شاهده الباحث ضمن مجموعة خاصة بأحد الأهالي على صناعة أوان متعددة الأشكال: مثل: القدور والزبديات والصحون ذات ألجوانب المرتفعة، كما عثر على كسر من مصابيح الإضاءة الزيتية. وتدل آثار الأزاميل في بعضها على أنها كانت في مراحل التصنيع، الأمر الذي يدل على أنها صنعت في أوضاع، ولم تجلب إليها، وقد يتركها الصانع أحياناً لعيب في الحجر أو عطبه أثناء التصنيع.

(٥٦) الشيخ فيحان بن مدوخ بن غازي البراق.

ولحظ أن هذه الأواني يغلب عليها الخشونة وغياب الزخرفة الجمالية مقارنة بما عثر عليه في المنطقة الشرقية حيث تتزين بقايا الأواني الصوانية بنقوش معقدة ورسوم لحيوانات وأشخاص ونباتات^(٥٧)، وحسب هذه المعثورات فإن صناعة أوضاع كانت لإنتاج مستلزمات منزلية ذات وظيفة، إلا أنه لا يمكن الجزم بعدم وجود أنماط أخرى قبل قيام تنقيب ودراسة كاملة للموقع الأثري، إذ قد يكون لتاريخ التصنيع مراحل عدة يمكن تمييزها بما يعثر عليه في طبقات سفلية. ولقد عثرت البعثة وغيرها من المهتمين على بقايا فخار أحمر وأبيض ومزجج باللونين الأخضر والأزرق وزجاج، وشاهد الباحث ما تنثر منها على السطح، وربما صنعت في أوضاع ولكن إثبات ذلك مرهون بالتنقيب والدراسة.

خامساً: إحياء صناعة الحجر الصابوني بأوضاع

سيساعد توطئ صناعة الحجر الصابوني في أوضاع على تنمية هذه المنطقة الريفية من عدة جوانب، أبرزها أنه سيكون نواة صناعية ونموذجاً يحتذى لدفع المواطنين المحليين إلى التفكير في تطوير صناعات تعتمد على الخامات المحلية بما يعد نقلة مهمة في اقتصاد المنطقة، إضافة إلى أنها ستكون جاذباً سياحياً مهماً يضاف إلى الموارد السياحية للمنطقة التي يؤمل أن تكون قطاعاً اقتصادياً إضافياً.

إن الأسباب التي أدت إلى اندثار أوضاع القديمة قد زالت في الوقت الحاضر؛ فقد استتب الأمن، وعادت طرق الحج

(٥٧) راجع اللوحات المرفقة بعمل: يوريس زارنيس (١٣٩٨هـ) تقرير عن الأواني المصنوعة من الحجر الصابوني، مرجع سبق ذكره.

عبر محاور الطرق البرية المعبدة، واستقر السكان، وأنشئت بنية تحتية وعلوية حديثة، وانتشر التعليم.

سيناقش الباحث فيما يلي عدداً من القضايا في سبيل إعادة الصناعة: فأولاً حاول الباحث اختبار الحجر ومدى صلاحيته ومميزاته لفن النحت، ثم نوقشت قضايا أثارته الدراسة التاريخية لصناعته في وضاخ، والوضع الحالي، والمشاكل التي قد تواجه مشروع إعادة إحيائه، والحلول المقترحة لها.

١ - تجربة الحجر

قام الباحث بأخذ عينات من حجر أوضاخ الصابوني لاختبارها، ولأنه لا يمكن أخذ عينة من أصل المعدن بدون حفر فقد أخذت عينات من بقايا الركام خارج المنطقة المسوّرة. وعلى الرغم من عيوبها الناتجة عن التجوية الطويلة فقد تم الحصول على نويّات صغيرة صالحة للنحت تظهر في (ملحق رقم ٣)، ثم تم تجريب العدد اليدوية عليها وكان النحت عليها في غاية السهولة، إذ أمكن قطعها وتشكيلها من الخارج عن طريق المنشار الفولاذي العادي، وأمكن تشكيل التفاصيل الخارجية والداخلية بوساطة أدوات بسيطة، مثل: الأزامل المسطحة وسكين قطع الورق وأمكن ثقبها يدوياً. بعد ذلك تم تجريب العدد الكهربائية، وأهمها المثقاب (Drill) وأداة القطع والجلخ (Grinder) والمثقاب الصغير (Drimill). وقد تبين أن التعامل معه باستخدام العدد الكهربائية في غاية السهولة والسرعة، مما يساعد على إنجاز أعمال كبيرة

الحجم نسبياً. لقد استغرق نحت بعض القطع ما يقارب (٤٥) دقيقة فقط، ويتوقع الباحث إمكانية تقليص هذه المدة مع احتراف العمل وتكراره.

خلال هذه التجربة تم إنتاج أربع قطع فنية حاول الباحث أن تكون متنوعة، بعضها للاستخدام العادي، وبعضها قطع فنية تجريدية، كما جربت عدد من تقنيات النحت، وتشكيل الملمس الخارجي، وثبتت صلاحيته للنقش الغائر والنافر وإمكانية الصقل وإظهار ملامس عدة على سطحه (ملحق رقم ٣).

إن ترك العمل بدون صقل يعطيه مظهرًا يوحي بالقدم والعراقه وهو ما يناسب القطع التي تستلهم المصنوعات القديمة في حين أن صقل السطح ميكانيكياً أو بالشمع وتنويع الملامس يعطي تأثيرات رائعة تساعد على الابتكار وتطوير المنتج، ومن ثم فإنه سيكون للفنان الحديث أسلوبان جذابان. الأول ينتج أعمالاً ذات جاذبية تاريخية توحى بالقدم والعراقة، والآخر زخرفي جمالي يتيح للفنان مجالاً واسعاً للإبداع والابتكار. وعلى الرغم من أن ما عثر عليه حتى الآن في أوضاع من أوان صابونية كانت خشنة ينقصها الجانب الجمالي لتركيز الصانع على وظيفة الإناء لا جماله فإن الفنان المعاصر سيضيف قيمة جديدة لصناعتها المندثرة.

لقد ثبت أن التعامل مع هذا الحجر من حيث صلابته يصلح لمختلف المراحل العمرية: ابتداءً من الطفولة المتأخرة وحتى ما فوق الستين، وهو مناسب للجنسين، حيث لا يحتاج لقوة عضلية كبيرة بقدر ما يحتاج إلى تركيز وانتباه.

٢ - عقبات وحلول مقترحة

مضت قرون طويلة على اختفاء هذه الصناعة ليس في هذه المنطقة فقط بل من مختلف مناطق المملكة، واستعادتها تحتاج إلى علاج بعض العقبات التي نوقشت كأسباب محتملة لاندثارها، غير أن الحاضر يحمل معطيات إيجابية ستكون - بإذن الله - عوناً على جعل ذلك ممكناً، ومن هذه القضايا اندثار الخبرات التقليدية، والممانعة الاجتماعية، ومدى توفر الخام والتسويق.

أ - اندثار الخبرات القديمة:

تقدم أن الصناعة غير موجودة في أوضاع، وأن الأهالي الحاليين لا علاقة لهم بمن سكن في أوضاع قبل زوالها، إلا أن من الممكن استعادة بعض المهارات القديمة عبر دراسة بعض القطع الأثرية غير مكتملة التصنيع التي عثر على بعضها، ويتوقع أن يعثر على المزيد منها في المنطقة الأثرية، فهي ستساعد في فهم أساليب النحت والتقنيات القديمة والأدوات المستخدمة، كما تساعد القطع المكتملة الصنع في توثيق التصاميم والاتجاهات الفنية، وربما أدى التنقيب إلى اكتشاف بقايا ورش مهمة كالأدوات التي استخدمت في النحت. ويقترح الاستعانة بالخبرات اليمنية، حيث لاحظ من مقارنة الباحث لبعض المعثورات من بقايا الأواني في المواقع الأثرية بالمملكة عموماً وبأوضاع خاصة وتلك التي تصنع في اليمن لاحظ تشابه كبير بين بعضها. ويقترح جلب مدربين لفترات محددة من اليمن التي تكاد تكون المعقل الأخير لصناعة الحجر الصابوني في الجزيرة العربية، ومن المفيد

أيضا الاستعانة بالفنانين التشكيليين المحليين خاصة النحاتين منهم في تطوير تصاميم حديثة تعكس الثقافة المحلية الحالية.

ب - المانعة الاجتماعية؛

تقدم أن العرب بصورة إجمالية ينظرون إلى الحرف نظرة احتقار، وقد تأكد هذا في العصر الحديث للمملكة نتيجة توفر أعمال تحظى بتقدير أفضل وبجهد أقل، وهو أمر يتطلب السعي لإحداث تغيير اجتماعي يساعد على قبول هذه الصناعة وازدهارها من جديد. إن من أهم الأمور المساعدة في ذلك هو تقديم وتطوير أعمال الحجر الصابوني على أنه فن وليس حرفة، إذ إن الفن التشكيلي يُعدُّ في الوقت الحاضر نوعاً من التعبير الثقافي الراقي المقبول من المجتمع بكل طبقاته الاجتماعية والاقتصادية، فأصبحنا نرى عدداً كبيراً من الفنانين والفنانات من مختلف شرائح المجتمع، كما لقي هذا الفن تقديراً ودعماً من قبل الدولة فضلاً عن إدخاله في مناهج التعليم العام وافتتاح أقسام للتربية الفنية. وفي محافظة الدوادمي على وجه الخصوص نرى عدداً من النحاتين الذين ينتمون إلى فئات اجتماعية وقبلية مختلفة، وأصبحوا في مقدمة النخب الثقافية لمجتمعهم المحلي، ويرى الباحث بأن جيل الشباب المبكر يتميز بمرونة في تقبل الأفكار الجديدة؛ لذا ينبغي التركيز عليهم في التدريب، ولفت أنظارهم لهذه الصناعة بوصفها مورداً اقتصادياً ومحققاً لذواتهم كمنتجين، ويقترح الباحث أن يكون ذلك ضمن مادة التربية الفنية في مدارس أوضاع وما جاورها عبر حقيبة

تدريبية لصناعات الحجر الصابوني لمعلمي التربية الفنية في هذه المدارس. وللمساعدة في تجاوز الحاجز الاجتماعي يقترح الباحث ابتعاث عدد من طلبة الثانوية لأقسام التربية الفنية بجامعات المملكة؛ ذلك أن المبتعث يلقي تقديرًا اجتماعيًا جيدًا، ومن شبه المؤكد أن ذلك سيكون حافزًا لتخصص بعض سكان المنطقة في هذه الصناعة والرفع من قيمتها عندهم، وينبغي إقامة معارض يُحتفى فيها بالموهوبين في هذه الصناعة وتكريمهم من قبل شخصيات رسمية وغير رسمية، ومن المهم أيضًا تسويق الصناعة كعمل إضافي للحصول على دخل ثان بين بقية أفراد المجتمع من ربات بيوت ومتقاعدين وذوي الاحتياجات الخاصة، وهواة يقوم بها الأفراد في وقت فراغهم اليومي والأسبوعي والموسمي.

وخلال زيارته الميدانية لأوضاع لمس الباحث وعيًا جيدًا لدى السكان بالقيمة الثقافية للآثار وأهميتها في تطوير البلدة، وتقبلهم لمشروع سياحي مقترح يقوم على تطوير صناعة الحجر الصابوني والآثار والمواقع الطبيعية^(٥٨).

ج - توفر الخام:

يرجح أن الأوضاخين القدماء لم يستنفدوا المعدن؛ نظرًا لكون تعدينهم له سطحيًا وفق قدراتهم المحدودة في ذلك الوقت؛ حيث كانوا يعتمدون على الحفر اليدوي، وحسبما يظهر من مخلفات التعدين القليلة نسبة للحقبة التي عاشتها البلدة، كما لحظ وجود امتداد التكوين الجيولوجي الذي يقع

(٥٨) الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث في ٢٨/٤/١٤٢٨هـ.

فيه الخام غرب المنطقة الأثرية؛ الأمر الذي يرجح وجود مواقع غير مستغلة، وفي الوقت الحاضر لا يوجد تقدير لتوفر الخام في المنطقة إلا أن ذلك لن يشكل عقبة في وجه إعادة الصناعة، فهناك احتمال لوجود مخزون منه في مناطق متفرقة من الدرع العربي، فعلى سبيل المثال أشار زارنيس إلى وجوده في ماسل جنوب محافظة الدوادمي، كما يوجد في شمال محافظة عفيف إلى الجنوب من قرية أم أرطى. وعلى افتراض نفاد الخام، فإنه يمكن جلبه من مناطق أبعد لتوفر طرق المواصلات، وضآلة الكمية التي تحتاجها الصناعة اليدوية في حال قيامها في أوضاع.

د - التسويق؛

ولعل أولى خطوات التسويق هي تطوير إنتاج يلبي أغراضاً شتى مابين الاستخدام التقليدي بإعادة البرمة إلى المطبخ المحلي، وذلك بتوعية ربّات البيوت بخصائص البرمة خاصة في طهي اللحوم وتوفير وقود الطبخ وإعطاء نكهة خاصة، وتدريب الحرفي والفنان المحلي على تلبية احتياجات سوق السياحة بالذكارات السياحية (Souvenir) التي تمثل الإرث الثقافي والطبيعي للمنطقة، واستعادة بعض المصنوعات التي صنعها الأوصاخيون، مثل المصابيح الزيتية.

وسيكون تصريف المنتج أسهل مما كان في الماضي؛ نظراً لتوفر شبكة النقل الجيدة التي تصل لمختلف مناطق المملكة، فضلاً عما سيشتره السياح في المنطقة نفسها، ويقترح الباحث أيضاً وضع منافذ للبيع على طرق الحجاج العابرة للمنطقة

مثل طريق القصيم - الدوادمي، وطريق شقراء - الدوادمي، والاستفادة من وجود الأسواق الأسبوعية في المنطقة، مثل: سوق رفابع الجمش وسوق الرويضة، ومن المقترح أيضا تنظيم مهرجان خاص بهذه الصناعة، ودعم تسويقه بالسعر العادل^(٥٩) في المناطق الحضرية الكبرى والمناطق السياحية.

سادساً: الحجر الصابوني كعامل جذب سياحي

يمكن توظيف الحجر الصابوني كعامل جذب سياحي من خلال جوانب عدة أهمها ما يأتي:

١ - الجانب التاريخي والأثري:

يتضح مما تقدم أن صناعة الحجر الصابوني في أوضاع ضاربة في القدم، وإن رواية قصة هذه الصناعة وما ارتبط بها من أحداث تاريخية كقصة شرحبيل بن الأسود التي سبق ذكرها، وغيرها بطريقة مسموعة أو مرئية ستضيف متعة لزيارة أوضاع، ومن جانب آخر فإن مناطق التعدين وورش التصنيع وبقايا الأدوات التي تم تصنيعها تشكل آثاراً بالغة الأهمية؛ لأنها ستكون منطقة جذب إذا تم توظيفها بطريقة جيدة، فالورش يمكن الكشف عنها وإعدادها للزيارة والمنقولات الأثرية ستكون نواة لمتحف متخصص لصناعة الحجر الصابوني بأوضاع، والعدد اليدوية التي يتوقع العثور عليها والقطع غير المكتملة ستكون أدوات لشرح التقنية

(٥٩) يقصد بالسعر العادل حصول الصانع على ما يوازي تكلفة المنتج

ومقابل الجهد المبذول فيه وهامش ربح، وتكون نسبة ما يحصل عليه

أكبر من نسب الوسطاء.

الأوضاحية في عرض متحفى متنوع، والمصنوعات القديمة التي يعثر عليها يمكن إنتاج نسخ منها وبيعها على زوار البلدة كتذكارات سياحية (انظر ملحق رقم ٣).

٢ - التصنيع:

ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار في إحياء الصناعة تحويل الورش إلى أماكن قابلة للزيارة ومشاهدتها في أوقات العمل، وينبغي أن تكون هذه الورش أماكن سياحية مميزة في تصميمها وبنائها الذي يقترح أن يكون بالطريقة نفسها لبناء الأوضاحية القديمة المعتمدة على الحجارة والجص، ويتوقع أن يكشف التنقيب عن المزيد من المعالم العمرانية التي ستكون مفيدة في هذا المجال، ويقترح أن تعمل هذه الورش حتى خارج المواسم السياحية؛ لتوفير تذكارات سياحية خلال المواسم، ولتصدير ما يزيد عن احتياجات سياح المنطقة.

٣ - التدريب:

يتوقع أن يكون هناك رغبة من فئات من السياح في التدريب على نحت الحجر الصابوني، ويتوقع أن يزور البعض أوضاخاً لهذا الغرض؛ لذا ينبغي النظر في إعداد مركز للتدريب يوجه لأبناء المنطقة، ولمن يرغب من الزوار والسياح خاصة وأنه لا يستغرق سوى ساعات قليلة، مثل هذا المركز سيكون نقطة جذب أخرى.

٤ - مركز مقترح لصناعات الحجر الصابوني:

يقترح الباحث إنشاء مركز ذي صبغة صناعية حرفية وسياحية بأوضاع، مستفيداً من الإرث التاريخي ووجود

الخام، ولعله يمثل دور المؤسسة الرسمية الباعثة لصناعة الحجر الصابوني في المنطقة؛ إذ لا توجد حالياً أي جهة تتولى دعم هذه الصناعة أو تطويرها، وقد يدار ويستثمر من قبل القطاع الخاص، ويفضل أن يكون موقعه بالقرب من المنطقة الأثرية التي يقترح أن تصبح جزءاً منه.

ويشتمل هذا المركز المقترح على الأقسام الآتية:

- المنطقة الأثرية بعد أن يتم التنقيب عنها وإعدادها لاستقبال الزوار وفق آليات وإجراءات تكفل المحافظة عليها.
- المتحف الذي تعرض فيه بعض المنقولات الأثرية التي يعثر عليها في الموقع الأثري بأوضح، ونماذج لمصنوعات قديمة وحديثة، ووسائل إيضاح لصناعة الحجر الصابوني وقاعة لتاريخ المنطقة.
- معهد للتدريب على صناعة الحجر الصابوني، ويضم ورشاً وقاعات ومركزاً للمعلومات.
- ضيافة للمتدربين القادمين من خارج أوضاع الوفود الزائرة، وتضم أجنحة للمبيت.
- متجر لبيع المصنوعات المحلية ومستلزمات صناعة الحجر الصابوني.
- ورش يتم تخصيصها للفنانين المحليين.
- قاعة عرض للفنون التشكيلية.
- مطعم يستخدم أواني وقدروراً للطهي من الحجر الصابوني.
- حدائق صحراوية تحيط بالموقع.
- قسم للإدارة والخدمات المساندة.

٥ - الحجر الصابوني بوصفه جزءاً من منظومة سياحية:

إن تطوير عامل جذب سياحي واحد أمر ممكن في حال الرغبة في اجتذاب شريحة معينة من الناس تهتم به على وجه الخصوص، وقد يكون لاتخاذ مثل هذا القرار مردود جيد على بعض الأنماط التي تحظى بشعبية واسعة لدى السوق المستهدفة؛ غير أن الاستفادة القصوى من قدوم السياح لمنطقة ما تتطلب خطة شاملة لتنمية السياحة تقنع المجتمع بمختلف شرائحه بالسياحة في ذلك المقصد، وتجعلهم يطيلون مدة مكثهم فيه، ولتحقيق ذلك ينبغي النظر بعين فاحصة للموارد السياحية المتوفرة في المنطقة، وتوفير العوامل المساعدة لتطوير أنماط أخرى، وينبغي ربط النشاط السياحي بالقطاعات الاقتصادية الأخرى بهدف تنميتها جميعاً، إذ إن كثيراً من هذه القطاعات كالرعي والصناعة والزراعة لها قيمة سياحية.

وفي حالة أوضاع فإن تطوير صناعة الحجر الصابوني مهما كانت ضئيلة فإنها ربما كانت جذوة لصناعة مميزة تنمو مع الوقت، وعامل جذب سياحي يعمل مع عوامل الجذب الأخرى في تكوين منطقة سياحية خاصة. إن نجاح تطوير صناعة الحجر الصابوني في أوضاع سيكون أكثر ضماناً بجعله جزءاً من منظومة سياحية تستغل عوامل الجذب بنوعيتها الطبيعي والبشري ليس لأوضاع فقط بل والمناطق المجاورة لها، هذه المناطق تجتذب قدراً من السياحة الداخلية كزوار جيلة وطخفة وعبلة أوضاع، إلا أنها حتى كتابة هذا البحث لم تشهد أي نوع من التنمية السياحية.

ويوجد ضمن الأراضي التي يشرف عليها مركز أوضاع الكثير من الظواهر الطبيعية والموروث الإنساني مما يصلح بشيء من التطوير كنقاط جذب سياحي (Attractions) ومنها:

جبال وارادات؛

وهي جبال جرانيتية صغيرة متجاورة تقع إلى الجنوب الغربي من بلدة أوضاع ولها ذكر في التاريخ العربي، وتتميز بالكثير من التكوينات الصخرية ذات الأشكال الغريبة والكهوف، ويحيط بها أراض منبته للأعشاب الحولية والدائمة والشجيرات ويقصدها سكان المدن القريبة للنزهة.

الموارد القديمة؛

وهي آبار قديمة في بطن شعب أوضاع تستقي منها البادية، ويتردد لدى بعض سكان أوضاع^(٦٠) أن إحداها هي العين التي أمر عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بحفرها^(٦١).

مقاطع الأرحية؛

منطقة صخرية كانت تقطع منها حجارة الرحي لصلاحية صخورها لذلك، وترى آثار قطع الأرحية على شكل دوائر، وتقع إلى الشرق من البلدة.

(٦٠) ذكر لي الشيخ فيحان البراق أنه زارهم باحث فرنسي بذل وقتاً في البحث عن موقع العين، وأنه رجَّح بعد أيام عدة أنها البئر الواقعة في شعب أوضاع بين أوضاع القديمة وجبال وارادات ومن خلفها جبلة، كما ذكر بأنهم وجدوا بعض الآثار عند تنظيفها، وأن مياهها لا تنقطع، وقد أوقفني عليها، والأمر يحتاج إلى تحقيق.

(٦١) ورد ذكر العين في مراجع عدة وللمزيد من المعلومات راجع: حمد الجاسر، أبو علي الهجري وأبحاثه، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٩.

عَبْلة أَوْضَاخ:

منطقة شديدة الاستواء تنبت الأعشاب الحولية والكمأة بكثافة عقب مواسم الأمطار ويقصدها الناس للتنزه.

صفاة أَوْضَاخ العليا:

أكمة صخرية بيضاوية تكاد تكون قطعة واحدة يمكن الصعود عليها بالسيارة وتقع قرب البلدة.

البلدة القديمة:

مساكن الهجرة القديمة، ويظهر بها مراحل الانتقال من البناء بالطين إلى استخدام الأسمنت، وهي نموذج لبدايات استقرار البادية.

وفي دائرة أوسع فإن البلدة تقع في أقصى الشمال الغربي لمنطقة الرياض الإدارية، وإقليمها السياحي المحلي يمكن تحديده بدائرة تغطي وسط شمال منطقة الرياض ووسط جنوب منطقة القصيم، بيد أن الخطة التي اعتمدتها الهيئة العليا للسياحة هي بناء جهاز سياحي لكل إمارة من الإمارات الثلاث عشرة، وهذا يجب أن لا يعيق التخطيط لتطوير مناطق سياحية مشتركة بين أكثر من منطقة، باعتبارها الوحدة الطبيعية والبشرية والتقارب المكاني، وما يوجد في هذه المناطق سيكون له أهمية كبيرة لتطوير السياحة في منظومة واحدة؛ حيث لا تأثير يذكر للحدود الإدارية في هذا المجال.

أما خارج حدود مركز أَوْضَاخ فيتباين المظهر الطبيعي ما بين مناطق صحراوية مستوية تخترقها شعاب وأودية ومناطق

جبليّة وتلال تكسر خط الأفق، يجاورها تجمعات لأشجار الطلح، ونفود رملية حمراء، ومنخفضات تشغلها المزارع والسبخات أحياناً، وفي مثل هذه البيئة تكون سياحة الصحراء والسياحة البيئية هي النمط السائد، وهو ما نلاحظه من تردد أسماء لدى هواة البر لأماكن ذات تميز من الناحية الطبيعية والتاريخية، ومن أهمها في دائرة مركزها أوضاع وقطرها ستون كيلومتراً ما يأتي:

موقع جبلة:

وهو هضبة جرانيتية وريدية، يصل ارتفاعها إلى ١٣٠٢ متر^(٦٢) فوق سطح البحر مرتفعة عن الأراضي المجاورة لها بما يناهز ثلاثمئة متر، وتقع إلى الجنوب من مدينة نفي، وعن أوضاع بنحو ٤٦ كيلومتر بصورة مستقيمة، وينحدر منها شعب في جهتها الشمالية الشرقية، وتحوي شعباً وتشكيلات صخرية وحواف وأشجاراً، ويحيطه أراض تكسوها الرمال في الغرب والأشجار في الشمال الشرقي وأراض معشبة مستوية في الشرق، وهي متنزّه مهم لأهالي المدن المجاورة، وله قيمة تاريخية حيث كان مسرحاً لعدد من أيام العرب التي حدثت في الجاهلية، ومنها يوم جبلة المشهور. وهو الموضع الطبيعي الوحيد في محافظة الدوادمي الذي أشير إليه كأحد المواقع القابلة للتطوير السياحي من قبل الهيئة العليا للسياحة^(٦٣).

(٦٢) هيئة المساحة الجيولوجية، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٥.

(٦٣) الهيئة العليا للسياحة (١٤٢٥هـ) المواقع القابلة للتطوير السياحي

بمنطقة الرياض، تقرير غير منشور، ص ٧٧.

درب الحاج البصري:

وهو درب الحجاج القديم الذي يأتي من جنوب العراق ماراً بالقصيم متجهاً نحو الجنوب الغربي، ويقترّب من أوضاخ في محطته الواقعة في إمرة قرب الجبل المعروف بالاسم نفسه حالياً أو جبل (مُتَالَع) قديماً. ويبعد عن أوضاخ ٦٠ كيلومتراً تقريباً، وهو موقع مميز من الناحية الطبيعية، وفيه بعض آثار الطريق القديمة. وفي مسافة أبعد نحو الغرب والجنوب الغربي يواصل الطريق مسيره عبر محطتين مهمتين: الأولى قرب جبال طخفة المنتزه الطبيعي المشهور، والثانية بمدينة ضريّة حاضرة حمى ضريّة التي تحوي آثاراً قديمة.

رمال الشقيقة:

وهي كثبان رملية حمراء تقع إلى الشمال الشرقي من أوضاخ ويقف عندها وادي الرشا، حيث تكونت روضات وأراض استغل بعضها في الزراعة، وتمثل هذه الكثبان مظهراً مميزاً يختلف عن بيئة المناطق المجاورة موفرةً مصدراً للأنشطة الترفيهية المعتمدة على الكثبان الرملية. ويمكن الوصول إليها عبر الطريق المعبد المار بطرفها الجنوبي الذي يصل أوضاخ بالعمار شرقاً أو عبر عبلة أوضاخ.

وادي الرشا:

وهو واد واسع إلى الجنوب من أوضاخ، ويرفده رافد الهيشة، وهو الأقرب لها، وتنمو أشجار السمر والطلح في بعض أجزائه، وتغطي أرضه بالحصباء النظيفة التي هي

عبارة عن مفتتات من صخور الجرانيت بالدرجة الأولى، وبالقرب منه عِبْلَة أوضاع ذات الأرض المستوية المميزة بلونها الوردي.

رمال الشدوة:

وهي عرق رملي يمتد من الشمال إلى الجنوب، وتقع قرية التسرير عند منتصفه، وتبعد أطرافه الشمالية عن أوضاع خمسة وعشرين كيلومترا تقريبا مجاورة وادي الرشا، وبالقرب منها تقع بلدة الديرية التابعة لمركز أوضاع.

٦ - البنية التحتية والخدمات العامة والسياحية:

توفر الخدمات الأساسية بأوضاع وقلة الضغط عليها مقارنة بالمناطق الحضرية هو من الأمور الإيجابية التي ستساعد على تطوير البلدة سياحياً؛ إذ تتوفر شبكة للطرق والكهرباء والمياه والهاتف الثابت والجوال، والخدمات الاجتماعية، ومن أهمها التعليم والخدمات الصحية والأمن. على أن تطويرها سياحياً سيتطلب العمل على رفع كفاءة البنية التحتية، وأهمها الطرق لتسهيل الوصول إلى نقاط الجذب واختصار الطريق المؤدي إليها من المناطق الحضرية الكبرى التي يتوقع أن تكون المصدر الرئيس للسياح، ومن أهمها الطريق الذي يصلها بمدينة الرياض، إذ تتوفر طرق غير مباشرة، في حين يمكن اختصار المسافة بخمسة وأربعين كيلومترا لو تم ربط بلدة الديرية شرقاً بأوضاع؛ لتصبح المسافة ٣٣٩ كيلومترا بدلا عن ٣٨٤ كيلومترا^(٦٤).

(٦٤) قيسست من خرائط دليل هواة الرحلات البرية في المملكة العربية

السعودية (١٤٢٤هـ) هيئة المساحة الجيولوجية، ص ١٨٥.

ولابد من تطوير الخدمات السياحية، ومن أهمها أماكن الإيواء والإرشاد السياحي وخدمات الطعام والترفيه والبنوك، وهي خدمات ما زالت متواضعة **لابد من تطوير الخدمات السياحية. ومن أهمها أماكن الإيواء والإرشاد السياحي** | تخدم المقيمين والعابرين، ولا تصل إلى مستوى الخدمة السياحية، ولعل وجود مدينة نفي بالجوار يجعلها مركزاً مبكراً لهذه الخدمات، خاصة وأنها تقع على طريق من طرق الحج، وتبعد عن أوضاع سبعة وأربعين كيلومتراً بالطريق البري المعبد غير المباشر، وبطريق ترابي مطروق بسبعة وعشرين كيلومتراً فقط، وينبغي تعبيد هذا الطريق، وتطوير هذه الخدمات تدريجياً بمشاركة الأهالي بعد إعداد خطة تراعي الأبعاد الاجتماعية والبيئية لتطوير سياحة مستدامة.

سادساً: إحياء صناعة الحجر الصابوني بالملكة

أوضاع ليست إلا أنموذجاً واحداً لمراكز صناعة الحجر الصابوني التي يمكن استعادتها في المملكة العربية السعودية، بل إن هناك كثيراً من الفرص الممتازة التي يمكن استعادتها في مناطق كثيرة من المملكة، ومن أهمها المناطق السياحية مثل: مدينة الطائف؛ حيث يوجد تعدين قديم للحجر وتصنيع له في وادي بقران، وفي منطقة عسير هناك موقع له في حجلابن مدينة أبها وخميس مشيط، وقرب وادي تربة حيث سيوفر دخلاً إضافياً مهماً للسكان في تلك المنطقة التي تعتمد على الرعي والزراعة فقط، وهناك عوامل كثيرة

تساعد وتشجع على وضع خطط لاستعادة هذه الصناعة،
ومن أهمها:

- ١ - توفر المادة الخام في مناطق مختلفة من الدرع العربي بعضها سبق استغلاله، وبعضها الآخر لم يستغل.
- ٢ - وجود الإرث الحضاري لهذه الصناعة على الرغم من انقراضها، ويمكن استعادته عن طريق أبحاث أثرية وفنية.
- ٣ - سهولة نحته والتدريب عليه؛ حيث يناسب مختلف شرائح العمر من الجنسين، ولا يتطلب جهداً عضلياً كبيراً.
- ٤ - لا يتطلب سوى أدوات بسيطة وورشة صغيرة.
- ٥ - وجوده في مناطق بحاجة إلى مصادر دخل ذاتية.
- ٦ - نجاحه على مستوى العالم، حيث إنه من أكثر الأحجار استخداماً في المنتجات الحرفية والفنية ذات الأبعاد الثلاثة.
- ٧ - تعدد استخداماته ما بين تحف فنية بحتة وأدوات ذات وظائف.
- ٨ - ذو عائد مجز، تبعاً لسهولة التدريب على صناعته، وتوفر أدوات صناعته، وقلة الجهد المبذول في إنتاجه.
- ٩ - منتجاته قابلة للنقل والتخزين بسهولة؛ حيث يمكن بيعه لزوار مناطق الإنتاج أو نقلها إلى المناطق الحضرية والمقاصد السياحية الأخرى.

١٠ - آمن وغير ملوَّث؛ حيث أنه يتركب أساسا من التلك، ويمكن التأكد من سلامة الخام قبل استخدامه.

إن سهولة أساليب تصنيعه وتعددتها يجعل من إمكانية إعادة هذه الصناعة أمراً في متناول اليد، خاصة مع توفر الأدوات الحديثة، إلا أنه يجب وضع إستراتيجية صحيحة لاستغلاله الاستغلال الأمثل، ويرى الباحث أنه يجب التأكيد على الضوابط الآتية:

١ - أن يتم الاستغلال في مناطق التعدين قدر الإمكان، وذلك لتنمية هذه المناطق ذات الموارد الاقتصادية الضعيفة، والعمل على استقرار السكان فيها وتقليص الهجرة إلى المدن.

٢ - إتاحة الفرصة للمواطنين المحليين من الجنسين لممارسة هذا النشاط، والتأكيد على عدم جلب العمالة من خارج المملكة للمساعدة على توطین هذه الصناعة وطبعها بطابع محلي يعكس الثقافة السائدة.

٣ - الاقتصار على الإنتاج الفردي، وليس التجاري الواسع، وذلك للاستفادة القصوى من الخام؛ لأن قيمة المنتج تكون أعلى، ولزيادة العمر الافتراضي للرصيد الموجود من هذه الأحجار.

٤ - منع نقل الخام خارج مناطق التعدين بكميات تجارية. وهذا أمر مهم لتوطین الصناعة، والمحافظة على الخام اللازم لاستمرارها، وزيادة العائد منها على المجتمع المحلي.

٥ - عدم منح امتياز تعدين الخام لشركات ومؤسسات تجارية؛ حيث يؤدي ذلك لاحتكاره، وحرمان الأفراد والأسر من الاستفادة منه، وتحويل الاستثمار إلى بيع للخام يؤدي إلى نفاذه في فترة وجيزة.

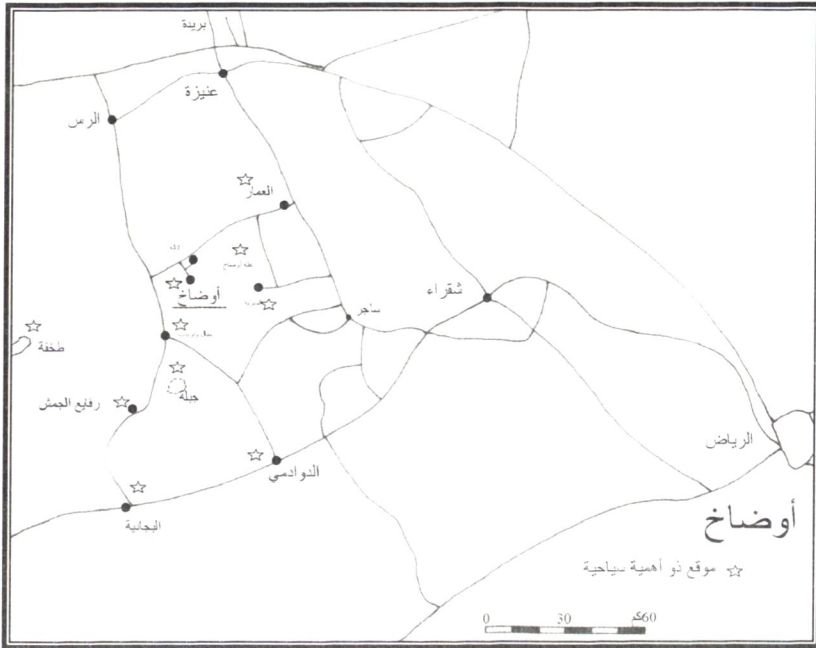
٦ - دعم الصناعة بطريقة مرشدة؛ إذ ينبغي عدم الإفراط في الدعم، ومراعاة الحجم الأفضل للصناعة لضمان استمرارها، ويقترح في هذا المجال تطوير برنامج قروض ميسرة لمن يرغب العمل في هذا المجال، وقد يكون هناك صيغ عدة لذلك، وتطوير مهارات العرض والبيع والتسويق، والمساعدة في بيع المنتجات في المناطق الأخرى بالسعر العادل، كما ينبغي دعم أنشطة جانبية أخرى، مثل صناديق الهدايا والكروت ومنتجات بيئية أخرى.

٧ - تطوير الذائقة الفنية واستلهاام البيئة والتراث والمتابعة الدورية لمستويات الإنتاج كما وكيفا والعمل على تحسينه.

٨ - الحرص على شمول التدريب للقادرين على العمل في مجاله بصرف النظر عن الفئة العمرية أو الجنس، الأمر الذي سيشجع على العمل الأسري، ويساعد بعض الفئات على الحصول على دخل إضافي في وقت الفراغ.

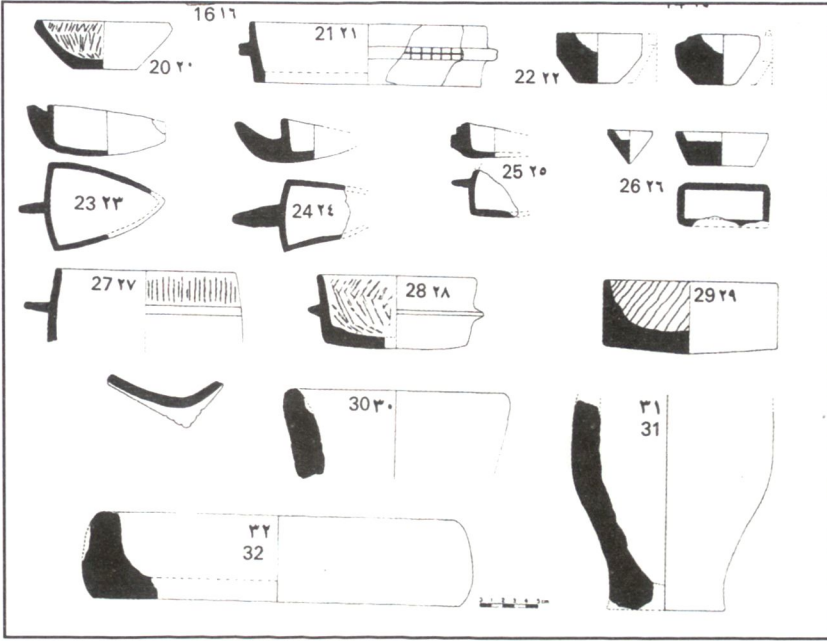
٩ - ربط التطوير بصناعة السياحة، وتطوير المواقع الأثرية مثل المحاجر ومواقع التصنيع القديمة كمزار سياحي، وتسويق المنتجات في المناطق الحضرية والأماكن السياحية بالمملكة.

الملاحق



ملحق رقم (۱)

المصدر: من إعداد الباحث اعتماداً على المساحة العسكرية (١٤٢٥هـ) خريطة المملكة بمقياس ١ إلى مليون



ملحق رقم (٢)

كسر أوانٍ من الحجر الصابوني وقناديل إضاءة زيتية، جمعها فريق وكالة الآثار من أوضاع مع رسم لبقية الإناء من واقع شكل القطعة.

المصدر : يوريس زارنيس وآخرون (١٣٩٩) التقرير المبدئي عن مسح المنطقتين الوسطى والجنوبية، مرجع سبق ذكره، العدد الرابع، الملحق.



تابع ملحق رقم (٢)

قطع من أواني ومصابيح زيتية من الحجر الصابوني وجدت بأوضاع
المصدر: تصوير الباحث من مجموعة خاصة بأحد المواطنين



ملحق رقم (٣)

أ : تجربة قام بها الباحث لصنع أعمال من عينات من الحجر الصابوني
أخذت من أوضاع

١- فنجان ٢- عمل فني تجريدي ٣- ماسكة أوراق ٤- حامل شمعة



تابع ملحق رقم (٣)

مصباح زيتي

قام الباحث بنحته طبقا لبقايا المصابيح الزيتية التي عثر عليها في أوضاع.